د. عمر بن عبد الله المقبل
الأستاذ المشارك في كلية الشريعة
والدراسات الإسلامية بجامعة القصيم

مرافئ

مقالات في العلم والدعوة والمنهج

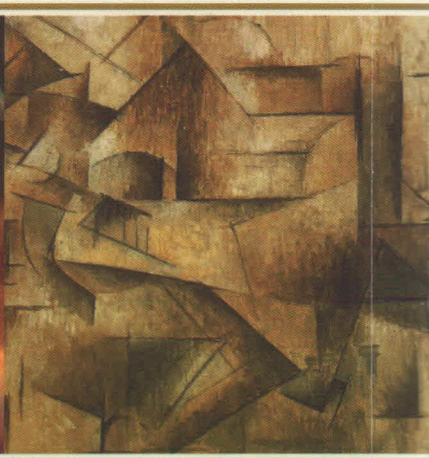

الطبعة الأولى
دار الحضارة للنشر والتوزيع

ح دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٣٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المقبل، عمر عبدالله محمد

مرافئ: مقالات في العلم والدعوة والمنهج - المجموعة الأولى./ عمر عبدالله محمد المقبل-الرياض ١٤٣٥هـ

ص ؛ ٠٠×٠٠ سم.

ردمك: ٧ -٣٠٦ -٥٠٦ -٦٠٣ -٩٧٨

١ -الدعوة الإسلامية - مقالات ومحاضرات ٢ -التربية - مقالات ومحاضرات أ -العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٣٥/٩١٣٩

رقم الإيداع: ١٤٣٥/٩١٣٩

ردمك: ٧ -٣٠٦ -٥٠٦ -٦٠٣ -٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

دار الحضارة للنشر والتوزيع

ص.ب ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥

هاتف: ٢٤٩٦٥٥٥ - ٢٧٨٧٣٣٣ فاكس: ٢٤٨٣٠٠٤

المستودع تلفون: ٢٤١٦١٣٩ فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨

الرقم الموحد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فلهذه المقالات التي جمعتها هذه الضميمة قصةٌ، وهي أنني حين كنتُ أرتب لإطلاق موقعي الشخصي على الشبكة العالمية في الربع الأول من عام ١٤٣٤هـ استشرت بعض الإخوة الذين لهم اختصاص في إدارة المواقع، فأشاروا عليّ أن يكون هناك مقالٌ أسبوعي تُطلّ من خلاله على زوار الموقع؛ وليكون رافداً لدعم جديد المواد المنشورة، فالمواقع التي لا تتجدد تموت، ويتركها زوارها، فاستكثرت التوقيت الأسبوعي، وترددتُ في اتخاذ هذا القرار الذي يعني الالتزام، وهو حقٌّ لزائر الموقع، ثم كانت الاستعانة بالله، ثم الانطلاق في كتابة هذه المقالة الأسبوعية في زاوية «مرفأ الأسبوع»، والتي اجتمع منها ما بين يديك من أوراق في مجموعتها الأولى، والتي كان إخراجها مطبوعةً – أيضاً – بمشورة من بعض الأحبة، جزاهم الله خيراً.

لقد جاءت هذه المقالات في مناسبات مختلفة، ومواقف متنوعة، بعضها يشكل موقفاً شخصياً لكاتب هذه الأسطر، وبعضها يتعلق بشأنٍ عام، وفيها ما يمسّ الواقع العلمي، والدعوي، والمنهجي.

ولحداثة تجربتي في هذ السبيل فقد يلحظ القارئ تفاوتاً بين أول المقالات وآخرها.

أسأل الله تعالى أن ينفع بها، وأن يرزقنا السداد في القول والعمل، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه/ عمر بن عبدالله بن محمد المقبل

١٤٣٥/٧/١٨هـ

@dr_almuqbil

http://almuqbil.com

omar١٤٢٧@gmail.com

الكلمة في الشبكة العالمية

٢٣/ ٣/ ١٤٣٤هـ

«الكلمة أمانة» جملةٌ من كلمتين فقط نسمعها وربما ردَّدْناها، لكنها تحمل في طياتها معانٍ كبيرة.

ولئن كانت الكلمةُ في زمن مضى لا تكاد تتجاوز منطقةً قريبةً، وإذا تجاوزت احتاجت زماناً لتصل إلى مناطق بعيدة! فإنها اليوم تصل إلى العالم كلّه في غضون جزء من الثانية من خلال شبكة الإنترنت! التي ساهم ظهورها في قيام ألوان من التواصل بين الناس من خلال المنتديات، والمدونات، ومواقع التواصل الاجتماعي.

وإن الدخول في أمثال هذه الوسائل بأسماء مستعارة جرأ كثيرين على الكتابة والحديث بما يشاءون ويريدون، بل ربما تعدى ذلك إلى عدة محاذير، منها:

١) نشر الفساد العقدي والأخلاقي؛ من خلال الحديث في هذه الموضوعات، أو نقل الروابط التي تتضمن محتوى سيئاً في هذه الموضوعات.

٢) التهجُّم والتعدِّي على المسلمين عامّة، وعلى علمائهم ودعاتهم خاصة، بغير حق! والخطأ لا يَسلم منه أحدٌ سوى المعصوم ﷺ، ولكن من أراد فليكن ردُّه بعلم وعدل.

٣) إحياء النَّعَرات الجاهلية التي تنطلق من منطلق قبلي أو مناطقي أو غير ذلك من المنطلقات الجاهلية.

٤) السخرية بدين الله وشعائره، أو بحملة هذا الدين؛ لأنهم يحملون دين الله ويدعون إليه! وهذا ضربٌ من ضروب الكفر -والعياذ بالله- كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾[التوبة: ٦٥، ٦٦].

إن مثل هذه المحاذير -وغيرها كثير- التي تزداد يوماً بعد يوم؛ لتحتم علينا التواصي بعدة أمور:

أولاً: تقوى الله تعالى فيما يقوله الإنسان وينشره، وأن يتذكر قول النبي ﷺ: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة، ما يَتبين ما فيها؛ يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب**»[1]،

---

(١) البخاري ح(٦٤٧٧)، ومسلم ح(٢٩٨٨).

وحديث: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، لا يلقي لها بالاً[1]؛ يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقي لها بالاً؛ يهوي بها في جهنم»[2].

كم من كاتب كتب كلمةً، أو نشر صورة، أو مقطعاً مرئياً، نشره بواسطة معرّفه، أو صفحته في مواقع التواصل، ثم راح وتركها، ولم يتوقع أن تبلغ ما بلغت من الشر؛ فإذا بهذا الشخص يفتح كتابه يوم القيامة فيدهش لكثرة السيئات التي رصدت في صحيفته! فإذا هي نتيجة تسلسل الشر الذي نشأ من كلمات أو تغريدة كتبها، أو رابط نَقَله، لم يُلق له بالاً!

ثانياً: التخفي بالأسماء المستعارة لا يعني التخلص من «أمانة الكلمة» فما يكتبه الإنسان ويسطره محفوظ في صحف الملائكة إلا أن يتوب، وفوق ذلك اطلاع الله تعالى، الذي أنزل في كتابه: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨].

---

(١) أي: (لا يتأملها بخاطره ولا يتفكر في عاقبتها، ولا يظن أنها تؤثر شيئاً، وهو من نحو قوله تعالى: {وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم} كما في (فتح الباري) لابن حجر (١١/ ٣١١).

(٢) البخاري ح(٣٤٧٨).

ثالثاً: ليتذكر الكاتب أن ما يسطره قد يبقى سنوات وربما عقوداً! فيا لطول الحسرة إن لم يتدارك العبدُ نفسَه بتوبة قبل موته!

رابعاً: ليتأمل من ضيّع أمانة الكلمة حالَ من رعوا أمانةَ القلم واللسان! فكم شخص لا يملك من العلم إلا قليلاً، لكنه سخّر هذه التقنية لنشر الخير، وأصبح داعية إلى الله! فكتب الله على يده الخير العظيم.

ولعلي - ومن واقع معايشةٍ لهذه التقنية لنحو عقدين من الزمان- أذكر نماذج من هِمم هؤلاء الموفَّقين:

- الدلالة على المواقع والمواد النافعة؛ سواء كانت مكتوبة أم مرئية أم مسموعة، ونشر عناوينها أو روابطها.
- التصميم الجيد لتواقيع العلماء والدعاة ونشرها في مواقع التواصل الاجتماعي -كتويتر والفيسبوك.
- تلخيص الدروس والمحاضرات والخطب، أو تفريغها، وعرضها على أصحابها؛ لإعادة تحريرها، ثم نشرها بعد ذلك في كتاب أو مطوية أو غيرهما من الوسائل.
- عمل الخرائط الذهنية لبعض المواد المتشعبة...وغير هذا كثير جداً.

فهنئياً لمن كان مفتاحاً للخير، وويلٌ ثم ويلٌ لمن تتابعت سيئاته عليه بعد وفاته.

ولنختم بخير قول: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

***

يا قارئ الفاتحة .. هل فهمتَ الرسالة؟

٢٩/ ٣/ ١٤٣٤هـ

لا يستريب اثنان أن موضوع التشبه بالكفار قد اتسعت دائرته في عصرنا بشكل لم يسبق له نظير، ولذلك أسبابه التي لا تخفى، ولعل **الانفتاح الإعلامي** -بشتى وسائله- يأتي على رأس القائمة؛ لتمضي سنة الله تعالى التي أخبر عنها رسول الله ﷺ بقوله: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم، شبرا شبرا وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جُحر ضَب تبعتموهم**»! قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن**»؟[1]

ونحن مأمورون بأن نتعامل مع قَدَر الله بشرعه الحكيم، فالكل أمْرُه ونهيه.

وليس المراد من هذه الأسطر تلمسُ أسباب انتشار هذه الظاهرة، بل المراد التنبيه إلى علاج رباني عظيم لهذه الظاهرة، ألا وهو تدبر سورة الفاتحة، التي هي السبع المثاني، والقرآنُ العظيمُ الذي أوتيه نبينا ﷺ.

---

(١) البخاري ح(٣٤٥٦)، مسلم ح(٢٦٦٩).

ذلك أن نصف هذه السورة ذهب في تقرير مسألة الاستقلال، والعزة بهذا الدين، والحذر من التشبه بالأُمَّتين الكتابيتين -اللتين ذكرهما النبي ﷺ في حديثه الآنف الذكر- فكيف بغيرهما من الأمم التي لا كتاب لها، وليس لها من الأحكام التي تميزت بها الأمم الكتابية! وذلك في قوله تعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٦ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

فأنت ترى كيف أمرنا في اليوم والليلة سبع عشرة مرة على الأقل بهذا الدعاء العظيم، وهو الهداية للصراط المستقيم، الذي سار عليه: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ [النساء: ٦٩]، وتأكد بالبراءة من طريق الأمة اليهودية التي غضب عليها لتركها العمل بالعلم، وبالبراءة من طريق الأمة النصرانية التي عبدت الله تعالى على غير هدى ولا كتاب منير.

إن تدبر هذه السورة ليجتث شجرةَ التشبه من أصلها، لكن هل الذين يتشبهون بأعداء الله تعالى يُدركون ويتدبرون ما يقرأون؟!

لو كانوا كذلك لما رضوا بتنكّب صراط خُلّص عباده وأوليائه من الأنبياء والرسل، لينزلوا دركاتٍ إلى التشبه بعُبّاد الصليب، ومعتقدي التثليث، الذين نسبوا إلى الله تعالى العظائم.

ومن بدائع هذه الآية العظيمة: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أنها

تضمنت سؤال العبد أن يهديه ربُّه إلى طريق الأنبياء جملةً وتفصيلاً، فهذا الدعاء يشمل الهداية إلى الصراط، وهو لزوم دين الإسلام، وترك ما سواه من الأديان، والهداية في نفس الصراط -إذا وفق العبد لسلوكه- أي أن يُهدى لجميع التفاصيل الدينية علماً وعملاً، ولهذا قال بعض العلماء: فهذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد، ولهذا وجب على الإنسان أن يدعو الله به في كل ركعة من صلاته، لضرورته إلى ذلك.[1]

وبما تقدم، ينفتح للمتدبر سرٌّ من أسرار هذه السورة العظيمة، التي أمرنا بقراءتها في كل ركعة، فهل نرى أثرها على حياتنا جميعاً، وعلى إخواننا وأخواتنا من الذين رضوا لأنفسهم بالدون حين تشبهوا بالكفار؟!

إن هذه السورة، لمن أقصر الطرق لعلاج هذه المشكلة التي تقلق المؤمن والغيور على أمته، وهي من خير ما يُذكّرُ به المتشبهون بالكفار.

فيا قارئ سورة الفاتحة .. هل فهمتَ هذه الرسالة جيدا؟

اللهم ارزقنا الاعتزاز بديننا، وأعذنا من التشبه بمن تكره من أعداء الملة والدين يا رب العالمين.

(١) ينظر: تفسير السعدي (٣٩).

الشهرة بين الطَّلَب والهرَب

٨/ ٤/ ١٤٣٤هـ

لا تكاد تخطئ عينُ القارئ في سِيَر السلف الصالح -رحمة الله عليهم- الحديث عن كراهية الشهرة، فنقرأ أمثال هذه العبارات: «لم يكن يمنعني من مجالستكم إلا مخافة الشهرة»، و «كان فلان يتوقى الشهرة» وقال أحد الأئمة يعظ أخاه: «إياك والشهرة؛ فما أتيت أحداً إلا وقد نهاني عن الشهرة»، وقال آخر: «بث علمك، واحذر الشهرة»، ورويت الجملة هذه عن غير واحد: «لم يصدق الله من أحب الشهرة»، وأمثالها كثير.

ولا ريب أن هؤلاء الأئمة لم تتوارد كلماتهم إلا وهم يدركون أثر الشهرة على القلب، وأن الإنسان كلما زادت شهرته، صارت التبعة على قلبه أكبر؛ من جهة المجاهدة على الإخلاص، والتجرد لله تعالى، ومكابدة القلب على تخليصه من حظوظه.

وهذا المعنى حقٌّ وظاهر، ولا يأباه مَن عرف سِيرة القوم ومرادهم، إلا أن الذي رأيتُه في واقع بعضِ طلاب العلم، وبعض مَنْ لديه ما يمكنه الانطلاق به في الدعوة إلى الله تعالى؛ أنهم

يستحضرون أمثال هذه الآثار -حقيقةً أو معنى- كلما عُرِضَ على أحدهم المشاركة في نشر العلم، أو الدعوة إلى الله تعالى، وكأن هذه الآثار نصوصٌ نبوية قطعيّة محكمة غير منسوخة!

ولو سُئل هؤلاء الإخوة -الذين يحتجون بمثل هذه الآثار-: كيف وصَلتْ إلينا هذه الآثار؟

وكيف عرفنا هؤلاء الأئمة؟ بل كيف صاروا أئمة يُقتدى بهم، ويشار إليهم بالبنان؟

لم يكونوا كذلك إلا ببذلهم وعطائهم، ولو أنهم آثروا الخمول التام لما انتفع الناسُ بعلمهم، فهم -لعظيم فقههم- لم يكن حذرهم من تطلب الشهرة مانعاً لهم من الإنفاق مما وهبهم الله من العلم، وإلا كيف عرفناهم؟!

ولا يخفى على طلاب العلم أن الشهرة بالعلم وطلب الحديث أحد شروط قبول رواية الراوي، وإلا كان ذلك مما يَقدح في صحة ما يرويه؛ لدخوله في عداد المجاهيل ومستوري الحال.

وهذا الإمام أحمد رحمه الله أحد أشهر الأئمة الذين كانوا يكرهون الشهرة، ويهربون منها، حتى قال: أريد أن أكون في شِعب بمكة حتى لا أُعرف، قد بُليت بالشهرة، إني أتمنى الموت صباحاً ومساءً.

وقال مرة: ما أَعدِل بالفقر شيئاً، ولو وجدت السبيل، لخرجت حتى لا يكون لي ذِكر.

وقال لتلميذه المروذي: قل لعبد الوهاب: أَخمِل ذِكرك، فإني قد بُليت بالشهرة[1].

هذا الإمام -الذي قال عن الشهرة ما قال- لم يمنعه ذلك من أداء ما أوجبه الله عليه من بلاغ العلم، ومخالطة الناس، بل والوقوف في وجه السلطان وعلماء السوء حين دعي إلى المقالة البدعية الكفرية: القول بخلق القرآن!!

والنظر في سيرة هذا الإمام -وغيره من الأئمة الذين كانوا يكرهون الشهرة كابن سيرين وأيوب السختياني والثوري- هو الذي يُحدِث التوازن في هذه المسألة التي صار فيها كثير من الناس بين طرفي نقيض.

ودونك هذا النص البديع من الإمام النووي رحمه الله حيث قال في كتاب القضاء من «روضة الطالبين» (١١/ ٩٢): وأما من يصلح -أي للقضاء- فله حالان، أحدهما: أن يتعين للقضاء؛ فيجب عليه القبول، ويلزمه أن يطلبه ويُشهِر نفسه عند الإمام إن كان خاملاً، ولا يُعذَر بأن يخاف ميل نفسه وخيانتها، بل يلزمه أن يقبل ويحترز، فإن امتنع، عصا».

---

(١) ينظر في هذه النقول عن الإمام: سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١١ / ٢١٦، ٢٢٦)، الآداب الشرعية (٢/ ٢٧).

وقال بعد ذلك بقليل -(١١/ ٩٣)-: «وأما الطلب، فإن كان خامل الذِّكر، ولو تولى اشتهر وانتفع الناس بعلمه؛ استحب له الطلب على الصحيح» انتهى.

وهذا -لعمر الله- هو الفقه الذي تجتمع به الأدلة، وقد ازداد جمالُه أنه صادر مِن عالم عابد زاهد.

والذي يَظهر ويلاحَظ في السير، ويُشاهد في أرض الواقع؛ أن الشهرة كالإمارة، من طلبها وُكِل إليها، وأصابه من ضررها بحسب ما في قلبه من الطلب، ومن أتته دون طلب وركض، أعين عليها.

إذا تبين هذا، فإن العاقل يحذر من طلب الشهرة، والركض خلف بريقها، أو القيام في بعض المواطن بقصد الذكر والشهرة بين الناس، كما ذُكِرَ في ترجمة أحدهم: «وكان يقرأ في التراويح بالشواذ رغبة في الشهرة»، أو يبلغ به الحال أن يكون كما قيل عن أحدهم: «لَهُ نفْسٌ شغفة بالشهرة، ومُشِفّة للعلو»! فإن مثل هذا أقرب للخذلان، وحرمان بركة العلم، بل وحبوط العمل -والعياذ بالله!

والمسألة تحتاج إلى بسط أكثر، تجنبته عمداً، لأن القصد الإشارة، وإلا فهذه المسألة وثيقة الصلة بمسألتين كبيرتين: الإخلاص، ومسألة الخلطة أم العزلة؟ والبحث في تفضيل أحدهما على الآخر مما صنفت فيه المصنفات.

والموفَّق من تعاهد قلبه، وتفقد نيته، ومن صدق صدقه الله وأعانه، ومن تلبس بما ليس فيه شانه الله. اللهم أعذنا من شرور أنفسنا، ووفقنا لما تحبه وترضاه.

❊❊❊

البعد الدعوي والتربوي للقرآن المكي والمدني (٢/١)

١٣/ ٤/ ١٤٣٤هـ

من العلوم المشتهرة بين عامة المسلمين: أن القرآن -في وقت نزوله- ينقسم إلى قسمين: مكي، ومدني، وأما الفرق بينهما من حيث التعريف والمضامين فمما يدركه عامة طلبة العلم.

وليس الغرض هنا استعراض ذلك -فهو مبسوط في مواطنه من كتب علوم القرآن- لكن الغرض: الإشارة إلى معنى مهمٍ؛ ألا وهو: النظر في البُعد الدعوي والتربوي لهذا التقسيم، والذي يُفوّتُ عدمُ تأمله -على الداعية وطالب العلم- خيراً كثيراً، بل قد يوقعه تركُ هذا التأمل في إشكالات علمية وعملية كبيرة! وما واقِع بعضِ طلاب العلم والدعاة، والعاملين في ميادين الجهاد بأنواعه المختلفة -جهاد اللسنان والسلاح- إلا أكبر دليل على ذلك.

ومَنْ له أدنى متابعة على الساحة الدعوية والعلمية، والحوارات الإعلامية في وسائل الإعلام المختلفة؛ لا يتعب في رؤية منهجين بينهما تفاوتٌ كبير في التطبيق، مع أن كلاً منهما يُعلِن أن منهجه: الانطلاق من الكتاب والسنة، فأين الخلل؟

لعلنا نهتدي للجواب من خلال ما يلي:

أولاً: هذا التقسيم إلى مكي ومدني -بكل ما فيه من اختلاف في الأساليب والمضامين- إنما هو أثر من آثار حِكمة الله وعلمه، وعليه فخليق بالمؤمن أن يتوقف ليتأمل في حِكم وأسرار هذا التقسيم، وكيفيةِ الاستفادة منه في الحياة العلمية الدعوية والتربوية.

ثانياً: لا يمكن -وقد أيقنا بأن هذا التفاوت في الأسلوب والمضمون له حِكمٌ وأسرار- إلا أن نتأمل جيداً في خصائص خطاب كل مرحلة -وهو مبسوط في مواطنه كما أسلفت- ولكن الذي يُهمنا من ذلك في هذا المقام؛ الإشارة إلى معنى وهو: «ظهور حكمة التشريع في أسمى غاياته، حيث يتدرج شيئاً فشيئاً بحسب الأهم، على ما تقتضيه حال المخاطَبين واستعدادهم للقبول والتنفيذ»[1]، ويترتب على هذه الحكمة ثمرة عملية، وهي: «تربية الدعاة إلى الله تعالى، وتوجيههم إلى أن يتبعوا ما سلكه القرآن في الأسلوب والموضوع من حيث المخاطبين؛

---

(١) أصول التفسير للعثيمين (ص١٩).

بحيث يبدأ بالأهم فالأهم، وتُستعمل الشدة في موضعها والسهولة في موضعها»[1].

ومن الأئمة الكبار الذين نصّوا على هذا المعنى في فقههم التطبيقي لآيات الصفح والصبر، وفقه آيات الجهاد والنكاية في الأعداء: شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حيث يقول: «فمن كان من المؤمنين بأرضٍ هو فيها مستضعف، أو في وقت هو فيه مستضعف؛ فليَعمل بآية الصبر والصفح عمن يؤذي الله ورسوله -من الذين أوتوا الكتاب والمشركين- وأما أهل القوة فإنما يعملون بآية قتال أئمة الكفر، الذين يطعنون في الدين، وبآية قتال الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون»[2].

وقال أيضاً: "حيث ما كان للمنافق ظهور تخاف من إقامة الحد عليه فتنةً أكبرَ من بقائه عملنا بآية [الأحزاب: ٤٨]، ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ﴾ [الأحزاب: ٤٨]، كما أنه إذا عجزنا عن جهاد الكفار عملنا بآية الكف عنهم والصفح، وحيثما حصل القوة والعز خوطبنا بآية: ﴿ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ [التوبة: ٧٣] »[3].

ومن أئمة العصر الكبار الذين قرَّروا هذا المعنى بوضوح:

---

(١) أصول التفسير للعثيمين (ص١٩).

(٢) الصارم المسلول على شاتم الرسول (ص: ٢٢١).

(٣) الصارم المسلول على شاتم الرسول (ص: ٣٥٩).

سماحة شيخنا ابن باز رحمه الله فإنه لما قرر ضعف القول بنسخ آيات العفو والصفح، قال:

«والأحوال تختلف فإذا قوي المسلمون وصارت لهم السلطة والقوة والهيبة استعملوا آية السيف وما جاء في معناها،...فإن ضَعُفَ المسلمون استُعْمِلَت الآيات المكية، لما في الآيات المكية من الدعوة والبيان والإرشاد والكف عن القتال عند الضعف، وإذا قوي المسلمون قاتلوا حسب القدرة، فيقاتلون من بدأهم بالقتال وقصَدَهم في بلادهم، ويَكفون عمن كف عنهم، فينظرون في المصلحة التي تقتضيها قواعد الإسلام وتقتضيها الرحمة للمسلمين، والنظر في العواقب كما فعل النبي ﷺ في مكة وفي المدينة أول ما هاجر»[1].

❊❊❊

(١) مجموع فتاوى ابن باز (٣/ ١٩٢).

البعد الدعوي والتربوي للقرآن المكي والمدني (٢/٢)

٢٠/ ٤/ ١٤٣٤هـ

سبق أن أشرت في البعد الدعوي والتربوي للقرآن المكي والمدني (١/ ٢) إلى مسألتين مهمتين:

الأولى: أن في تقسيم القرآن إلى مكي ومدني حكمة تظهر في أساليب ومضامين الخطابين، وأن على الدعاة والمربين أن يستفيدوا من ثمرة هذا التفاوت في تربيتهم ودعوتهم.

الثانية: تطبيقات الأئمة علمياً وعملياً لهذا التفاوت.

وسنكمل في هذا الجزء الثاني بقية المعالم والأبعاد التربوية والدعوية لهذا التقسيم:

ثالثاً: على الداعية إلى الله، والمربي، والمعلم في حقلِه التعليمي - في المسجد أو المدرسة أو القناة- أن يراعي أحوال المخاطَبين، والبداءة بالأهم فالأهم، ومراعاة المتغيرات التي أثّرت في واقع الناس بسبب هذا الانفتاح الإعلامي، وسهولة التنقل في الأسفار، والذي فتحَ

الأعينَ والأفكارَ على ألوان من الأفكار والثقافات؛ جعلت قِياد الناس يحتاج إلى أسلوب وحكمة، وبُعد نظر.

وفي هذا القصةُ المشهورة بين عبدالملك بن عمر بن عبدالعزيز حين قال لوالده -بعد أن تولّى الخلافة-: يا أبت! ما منعك أن تمضي لما تريد من العدل؟ فوالله ما كنتُ أبالي لو غَلَتْ بي وبك القدور في ذلك! قال: يا بني! إنما أنا أُروّض الناس رياضة الصعب، إني لأريد أن أحيي الأمر من العدل؛ فأؤخر ذلك حتى أُخرج معه طمعاً من طمع الدنيا؛ فينفروا من هذه ويسكنوا لهذه»[1]، فانظر إلى مقولة عمر هذه وما فيها من العلم والعقل!

يقول هذا وهو في القرن الأوّل، الذي ما زال فيه بقايا من أصحاب النبي ﷺ، فضلاً عن وجود سادات التابعين، والغالب في الأمة الإسلامية القوة، وصلاح عامة الناس، فكيف بمن يأتي بعده؟ ويقول عمرُ هذا وهو ولي الأمر، الذي له السمع والطاعة بالمعروف، فكيف بمن ليس كذلك؟

ألا ما أحوجنا إلى هذا الفقه في النظر في الواقع، وعدم الاستعجال في تحصيل النتائج لقناعة الإنسان بأن رأيه حقٌّ! فلقد

---

(١) حلية الأولياء (٥/ ٣٥٤).

كان المسلمون -في العهد المكي- ورسول الله ﷺ بين أظهرهم هم أهل الحق بلا ريب، ولا توجد طائفة سواهم، ومع هذا أُمروا بالصبر وعدم الاستعجال، حتى قامت دولة الإسلام بعد بضع عشرة سنة.

رابعاً: انتشار برامج الفتوى، وسهولة الوصول إلى المعلومة؛ مكّنت الناس من الاطلاع على أقوال فقيهة في عدد غير قليل من المسائل الشرعية، التي قد تكون مخالفةً للسائد من الفتوى في البلد الذي يعيش فيه الإنسان، ورأوا أن وجود أقوال في المذاهب الفقهية، أو قال به أحد العلماء -وإن كان قولاً مرجوحاً أو شاذاً- يسوّغ لهم الأخذ بها.

ومهما كان غرض الآخذ بتلك الأقوال والآراء -بحسن قصد أو بهوى- فإن من المهم مراعاة هذا المعنى في باب الاحتساب على المخالِف.

فإذا كانت الفتوى قد يراعي فيها المفتي ظرفاً زمانياً أو مكانياً؛ فكذلك التعامل مع المستفتين.

خامساً: في حلقات تحفيظ القرآن من يبدأ بحفظ المدني؛ وعلى رأسه السبع الطوال -فكلها مدنية إلا الأنعام والأعراف- وهذا خلل يخالف منهج السلف الذين

كانوا يحرصون على تعليم وحفظ المفصَّل لأولادهم، والآثار عنهم في هذا كثيرة؛ عن عمر، والبراء، وابن عباس -رضي الله عنهم- وما ذاك إلا لسببين:

١- لوضوح أغلب آيات المفصّل، وأحكامه، وندرة النسخ فيه.

٢- لتركيزه على تربية القلب على الأصول الكبار: تعظيم الله، وتعليق القلب بالآخرة، والعناية بجانب الأخلاق مع النفس ومع الآخرين.

فخليق بأهل القرآن ومعلمي الحِلَق الاستفادة من هذا التدرج الذي لم يقع إلا لحكمة.

بل أستطيع القول باطمئنان: إن من أراد أن يربي من تحت يده تربية قرآنية؛ فليبدأ بالمكي قبل المدني، فالإيمان قبل القرآن -كما قال الصحابة- أي: بناءُ الإيمان ثم التوسع في معرفة الأحكام، فمن استقرّ الإيمان في قلبه سهل عليه الانقياد لأمر الله ورسوله ﷺ، ومن عكس فستكون النتيجة مكلّفة، والواقع أكبر برهان.

اللهم فقّهنا بمعاني كلامك وكلام رسولك ﷺ، وارزقنا العمل بهما.

***

قبل اتخاذ القرار[1]

٢٨/ ٤/ ١٤٣٤هـ

كثيراً ما تمر بأحدنا مواقفُ فرحٍ أو حزن، تتحرك معها العاطفةُ بقرارٍ يترجم اللحظةَ التي مررنا بها في ذلك الموقف، حتى إذا هدأت سَوْرةُ تلك اللحظة؛ بدأ الشخصُ يعيد حساباته في ذلك القرار الذي اتخذه، أو الكلمة التي أطلقها.

قد تكون تلك الكلمة نذراً شاقاً كلّف بها نفسَه! أو قرارَ طلاقٍ لم يُدْرَس، أو موافقةً على مهمة عملٍ لم يتأملها صاحبُها، أو رضىً بالارتباط بشريك العمر في الزواج، في ألوان وصورٍ من القرارات التي تتكرر في حياتنا.

والملاحِظ في السُّنة النبوية يجد صوراً من علاج هذه الحالة التي يسميها بعض الفضلاء: «**الاستغراق في اللحظة الحاضرة**»، وهذا العلاج يختلف بحسب الموضوع وبحسب الشخص نفسه، ومن ذلك:

---

(١) كان عنوان المقال حين نشر في الموقع: (ثلاثة أيام)، ثم بدا لي بعد التأمل والنظر، وتنبيه بعض الأحبة أن يكون عنوانه كما تراه أعلاه، وبناء عليه فقد تغيرت صياغة بعض أفكاره، والله الموفق.

أولاً: معالجة حماسة الشباب التوّاق للعبادة، بضبط هذا الحماس؛ لأن الشرع يلحظ معنى الاستمرار مع القلة، فهو خير من الكثرة التي مآلها للانقطاع: «**أدْوَمه وإن قلّ**»[1].

يظهر هذا في قصته ﷺ مع عبدالله بن عمرو بن العاص، حين استدعاه النبي ﷺ ليتأكد مما نُقل عنه في شأن تعبّده، حيث قال له: «**كيف تصوم؟**» قال: كل يوم، قال: «**وكيف تختم؟**»، قال: كل ليلة، قال: «**صم في كل شهر ثلاثة، واقرإ القرآن في كل شهر**»، قال: قلت: أطيق أكثر من ذلك، قال: «**صم ثلاثة أيام في الجمعة**»، قلت: أطيق أكثر من ذلك، قال: «**أفطر يومين وصم يوما**» قال: قلت: أطيق أكثر من ذلك، قال: «**صم أفضل الصوم صوم داود صيام يوم وإفطار يوم، واقرأ في كل سبع ليال مرة**» فليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ، وذاك أني كبرت وضعفت، ... الحديث[2]

والشاهد قوله: «**فليتني قَبِلت رخصةَ رسول الله ﷺ، وذاك أني كبرت وضعفت**».

ثانياً: السؤال عن العذر قبل اتخاذ القرار، فقد يكون الملوم

---

(١) البخاري ح(٦٤٦٤) مسلم ح(٧٨٢) واللفظ له.

(٢) البخاري ح(٥٠٥٢)، مسلم ح(١١٥٩).

معذوراً، وكم تفصّمت عرى صداقات، وانصرمت حبالُ علاقات بسبب الاستعجال باتخاذ موقف قبل التأمل في العذر!

وفي قصة حاطب عبرةٌ عظيمة، فإنه ﷺ – مع شدة ما صنع على المسلمين في تسريب معلومات الدولة وأسرارها - إلا أن النبي ﷺ لم يقابل غضبَ الفاروق ﷺ وطلبه ضَرْبَ عُنُقِه إلا بالتثبت والسؤال عن عذره فيما صنع، فقال له: «**ما حَمَلك على ما صنعت**» قال حاطب: والله ما بي أن لا أكون مؤمناً بالله ورسوله ﷺ، أردت أن يكون لي عند القوم يدٌ يَدفع الله بها عن أهلي ومالي، وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع اللهُ به عن أهله وماله، فقال النبي ﷺ: «**صدق، ولا تقولوا له إلا خيراً**» فقال عمر: إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين! فدعني فلأضرب عنقه، فقال: «**أليس من أهل بدر؟**» فقال: «**لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد وجبت لكم الجنة، أو: فقد غفرت لكم**» فدمعت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم[1].

ثالثاً: من صور تربية الشرع على عدم التعجّل في اتخاذ القرار:

---

(١) البخاري ح(٣٩٨٣)، مسلم ح(٢٤٩٤).

إعطاء الفرصة للطرف المقابل، كما في قصته ﷺ مع عائشة وبقية أمهات المؤمنين، حين نزلت آية التخيير، قالت عائشة: فبدأ بي أول امرأة، فقال: «**إني ذاكر لكِ أمراً، ولا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويك...**» الحديث[1].

وقريبٌ منه: قول زينب بنت جحش لما أرسل النبي ﷺ يخطبها، قالت: «ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي، فقامت إلى مسجدها... » الحديث[2].

سبحان الله! قد يكون المتوقع أن تقبل فوراً، فالزوج هو خير زوج على الإطلاق، لكنها التربية التي جعلتها تسلك ذاك المسلك في اللجأ إلى الله تعالى في قبول هذا القرار، والتماس الخيرة منه سبحانه.

رابعاً: الثناء على أشج عبدالقيس بكونه رجلا يتصف بالحلم والأناة[3]، والحلمُ: العقلُ، والأناة: هي التثبت وترك العجلة، حتى وإن كان التعجّل دافعه شرعيٌّ، فلا ينبغي،

---

(١) البخاري ح(٢٤٦٨)، مسلم ح(١٤٧٥).

(٢) مسلم ح(١٤٢٨).

(٣) مسلم ح(١٧).

كما في قصة عمر وحاطب السابقة، ويتأكد هذا في أبواب الاحتساب، وخصوصاً ما يمسُّ الأعراض والذمم؛ فإن تبِعة التعجّل فيها كبيرة، وآثاره خطيرة.

والمقصود أنه حينما تشتد سَورة الغضب، أو تغشى موجةُ الفرح، فلا ينبغي أن يستعجل الإنسان في طرح كلمة أو اتخاذ قرار بالمفاصلة قبل التأني والنظر، فقد يختلف الزوجان، ويحتد النقاش بينهما في مسألة عارضة، فهل من الحكمة والعقل اتخاذ قرار الطلاق، والنفوس مشحونة، والمشاعر متأججة؟!

وقد يتناقش صديقان في مسألة ما؛ فترتفع الأصوات، ويكثر اللغط، فيقرر أحدُهما اتخاذ قرار المفاصلة والمقاطعة، ودفن مشروع الصداقة في مقبرة الجدال والخصام!

وفي مجال العمل: قد يقع نقاش بين العامل وصاحب العمل، أو بين الموظف ومديره؛ فترتفع اللهجة، وتعلو لغة الغضب، فيقرر أحدهما -في نفس المجلس- قراراً آنياً؛ إما بفصل العامل من صاحب العمل، أو يطلب الموظف الاستقالة أو الانتقال إلى موقع آخر، ثم عند هدوء سَورة الغضب، يندم أحدُ الطرفين.

وفي مقام الفرح: قد يحلف أحدُهم أو ينذر نذراً شاقاً ليَفعلنّ كذا وكذا، فإذا ذهبت السكرة، وحضرت الفكرة؛ بدأ يطرق أبواب المفتين ليجد مخرجاً من هذا النذر الذي عقده في لحظة فرح، وقد يعقده – أيضاً – في لحظة يأس من شفاء مرضه، أو انكشاف غمته!

كم هو جميل أن نستفيد من هذه الأمثلة التي وقعت للصحابة أو معهم، في إعطاء النفس فرصة زمنية كافية قبل اتخاذ القرار، سواء كان في حالة فرح أو ضدّه.

لقد ذمّت العربُ العجلة، وكانت تكنيها «أم الندامات»، «فعليك بالأناة؛ فإنك على إيقاع ما أنت مُوقِعه أقدر منك على ردّ ما قد أوقعتَه»[1]، «والرافق لا يكاد يُسبَق، كما أن العَجِلَ لا يكاد يُلحق: فالعجل يقول قبل أن يعلم، ويجيب قبل أن يَفهم، ويحمد قبل أن يجرّب، ويذم بعد ما يحمد، ويعزم قبل أن يفكر، ويمضي قبل أن يعزم، والعَجِل تصحبه الندامة، وتعتزله السلامة»[2].

وهذا كله فيما لا يحتاج إلى قرار عاجل لا يحتمل التأخير، مع أهمية الاستشارة والاستخارة في كل الأحوال.

وإذا تأنى العبدُ، ودرس قرارَه، واستشار ثم استخار؛ فلا ريب أنه لن يندم مستقبلاً مهما كانت النتائج التي آل إليها الأمر؛ لأنه فعل ما بوسعه، والله الموفق.

❋❋❋

(١) الرسائل الأدبية للجاحظ (ص: ٣٣٤).

(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص: ٢١٦).

ما بيننا لم يَبلُغ ديننا

٦/ ٥/ ١٤٣٤هـ

تَذْكُرُ كتب السير أنه وقع بين سعد بن أبي وقاص وبين خالد بن الوليد ﷺ كلامٌ، يقع مثلُه بين الإخوة عادةً، فأراد رجلٌ أن يسب خالد بن الوليد عند سعد! فقال له سعدٌ - واعظاً بقوله وفعله-: «مه![1] إن ما بيننا لم يبلغ ديننا»[2].

الله أكبر! إنها نفوس الكبار، التي لا تسمح لأحد أن يصطاد في الماء العكر! ولا تسمح -أيضاً- بتضخيم الأخطاء، ولا ترضى بنقل الخصومة الشخصية وجعلها خصومةً دينية.

وهذا الموقف من سعد ﷺ يذكرنا بموقف مشابه وقع للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، فقد كان أحد المحدثين -وهو محمد بن العلاء المشهور بأبي كريب- يقع فيه، فدخل مرةً بعضُ طلبة الحديث على الإمام أحمد؛ فقال: مِن أين أقبلتم؟ قلنا: من مجلس أبي كريب، فقال: اكتبوا عنه؛ فإنه شيخ صالح، فقلنا: إنه يطعن عليك! قال:

---

(١) هي كلمة زجر، والمراد بها هنا: اسكت.

(٢) صفة الصفوة (١/ ١٣٥).

فأي شيء حيلتي؟! شيخ صالح قد بُلي بي![1]

إنه نفس المبدأ الذي اختطه سعد رضي الله عنه، فالإمام أحمد لم يرض بنقل الخلاف الشخصي وجعلِه خلافاً دينياً يوالي عليه ويعادي عليه، بل يجعل الاختلاف الذي مَردُّهُ وجهة نظر، أو لغير ذلك من الأسباب؛ يجعله في خانة، والاختلاف الذي سببه دينيٌ وشرعي في خانة أخرى.

وهذه المسألة مما تختلط فيها الأوراق عند بعض الفضلاء من المحسوبين على العلم والدعوة -فضلاً عمن سواهم-، وهو عدم التفريق بين الخلاف الشخصي، والخلاف الديني، وهو صورةٌ من صور فَقْدِ ميزان الإنصاف والعدل.

لقد كان بإمكان سعد وأحمد -رحمهما الله- أن يستثمرا ذينك الموقفين للنيل ممن تكلم فيهما، ووضعه في مقام الانتصار للدين؛ ليكتسب صفةَ الشرعية! وحاشاهما من ذلك.

إن من علامة كِبَرِ النفوس وسموّها؛ تعاليها عن حظوظ النفس، وفرز الخصومات الشخصية عن الاختلاف الذي سببه ديني وعقدي.

---

(١) سير أعلام النبلاء (١١/ ٣١٧).

وثمةَ ملحظٌ مهم في أمثال هذه المواقف، وهو:

أن العالِم له الدور الأكبر في قطع الطريق على بعض المحبين والأتباع، الذين يساهمون -بقصد أو بغير قصد- في إذكاء نار الفرقة بين العلماء والدعاة، فسعدٌ بادر بقطع الطريق وقال: «مه»! وأحمد بادر ببيان صلاح أبي كريب، وأن رأيه في أحمد اجتهاد منه، بل قال هذه الكلمة العجيبة: «رجلٌ صالح، بلي بي»! فتأمل كيف وصفه بالصلاح! ثم كيف اعتذر عنه بأن هذا ابتلاء بُلي به.

ومن الأمثلة المشرقة في هذا الباب: كلمة يونس بن عبد الأعلى حيث قال: ناظرتُ الشافعي يوماً في مسألة، ثم افترقنا، ولقيني فأخذ بيدي ثم قال لي: يا أبا موسى! ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة؟![1]

فتأمل كيف يؤكد الشافعي على عَقد الأخوة وإن لم يتفق مع العالم الآخر في مسألة واحدة! فكيف بمن يريد من الآخرين أن يتفقوا معه -أو مع شيخه الذي يُعظّمه- في غالب المسائل التي يسوغ فيها الاجتهاد!

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥١/ ٣٠٢).

إن المتابع لما يُقال ويُكتب في الشبكة العالمية -وقديماً في الأشرطة- سيجد أن كثيراً من الفجوة المصطنعة بين الكبار ليست حقيقية، وإنما هي فجوة يسيرة ضخّمها الأتباع، وساهموا في توسيعها، بينما لو التقى المتبوعون لم يكن بينهم إلا الود والاحترام، وتبادل النصيحة بالأسلوب الشرعي.

إن كثيراً ممن بوّأه الله مكانةً في العلم والدعوة، وصار له مؤيِّدون وأنصار لأقواله؛ يدركون هذه الحقيقة، لكن يقع منهم -أحياناً- بطء في المسارعة لقطع الطريق على المحبين -فضلاً عن المتربصين- فتزداد الهوّة الموهومة، ثم تكون المهمة في الردم أصعب وأشد.

إننا في زمن اشتدت فيه الحاجةُ لرأب الصدْع بين صفوف أهل الإسلام، خاصةً أولئك الذين نذروا أنفسهم للبلاغ -سواء في دروسهم، أو محاضراتهم، أو خطبهم، أو منابرهم الإعلامية- وأن يتنبهوا لأعواد الثقاب التي تُلقى بين الفينة وأختها بينهم وبين إخوانهم من أهل العلم؛ فإن في المبادرة حسماً لمادة الفرقة والشر، وحفاظاً على وحدة الصف، وإرغاماً للشيطان، وإرضاء للرحمن،

وليبرهنوا للناس أن الخلاف بين العلماء خلاف في الأفهام والعقول، وليس خلافاً في القلوب والنفوس.

وما سبق كله يؤكد -في المقابل- أنهم رضي الله عنهم إذا وقع ما يوجب النصيحة لغلط في مسألة شرعية؛ بادروا إليها، وهذا مما لا يحتاج إلى التمثيل له ولا به لشهرته.

فتوى في المجلس النبوي

١٣/ ٥/ ١٤٣٤هـ

دعنا -أيها القارئ الكريم- نتصور أننا الآن معاً في مجلس النبي ﷺ، وجاءه سائل يسأله عن مسألةٍ ما، فأجابه: افعل، أو: لا تفعل! أترى هذا السائل يستفصل: يا رسول الله! هل هذا واجب أم مستحب؟ يا رسول الله! أهو محرم أم مكروه؟ هل هذا الذنب كبيرة أم صغيرة؟

أقول وبكل اطمئنان: لن تجد هذا محفوظاً في تاريخ أسئلة الصحابة، بل أنت واجدٌ منهم السؤال الذي يكشف ما قد يكون غامضاً فقط؛ حتى يقع منهم الامتثال موقعه المطلوب، ولعل قصة أَمْرِهِ للثلاثة الذين خُلِّفوا، حين قال رسولُ رسولِ الله ﷺ لكل واحدٍ منهم: «إن رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك»[1]، قال أحدهم: فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها فلا تقربنها،... الحديث! لعل في هذه القصة أوضح الدلالة على ما سبق.

---

(١) البخاري ح(٤٤١٨)، مسلم ح(٢٧٦٩).

وليس هذا هو الموقف الوحيد، بل ثمة مئات الأمثلة التي تؤكد هذه الحقيقة الدقيقة، ضرب الصحابةُ فيها المثلَ الأعلى والأعجب في التسليم والطاعة، ومن أكثر الأحاديث التي استوقفتني: حديث رافع بن خديج رضي الله عنه، قال: كنا نحاقل الأرض[1] على عهد رسول الله ﷺ، فنكريها بالثلث والربع، والطعام المسمى، فجاءنا ذات يوم رجل من عمومتي[2]، فقال: نهانا رسول الله ﷺ عن أمر كان لنا نافعاً، وطواعية الله ورسوله أنفع لنا، «نهانا أن نحاقل بالأرض...» الحديث.[3]

وفي رواية لهذا الحديث أن عبدالله بن عمر كان يكري أرضه[4]، حتى بلغه أن رافع بن خديج الأنصاري كان ينهى عن كراء الأرض، فلقيه عبدالله فقال: يا ابن خديج! ماذا تحدث عن رسول

---

(١) اختلف في تفسير المحاقلة، لكن المعنى الجامع للعلة في هذه الصورة: أن النبي ﷺ نهى عن نوع من البيوع لأن مآله إلى بيع ربوي، لوجود الجهل بالتساوي بين صنفين ربويين، والقاعدة المقررة في أبواب الربا: أن الجهل بالتساوي كالعلم بالتفاضل.

(٢) هو ظهير بن رافع رضي الله عنه، وقد فهم النهي عن جميع صور المحاقلة، وفهمه هذا غير صحيح؛ فمجموع الأحاديث يدل على أن النهي إنما توجه إلى صورة يقع فيها الجهل بالتساوي -كما سبق-.

والعبرة هنا في تركه شيئاً اعتقد أن فيه رفقاً به؛ استجابة لأمر الله ورسوله.

(٣) مسلم ح(١٥٤٨).

(٤) أي: يؤجرها.

الله ﷺ في كراء الأرض؟ قال رافع لعبدالله: سمعت عمَّيَّ -وكانا قد شهدا بدراً- يحدثان أهل الدار: «أن رسول الله ﷺ نهى عن كراء الأرض قال عبدالله: «لقد كنت أعلم في عهد رسول الله ﷺ أن الأرض تكرى»! ثم خشي عبدالله أن يكون رسول الله ﷺ أحدث في ذلك شيئاً لم يكن علمه؛ فترك كراء الأرض»[1].

وفي رواية: قال ابن عمر: «لقد منَعَنَا رافعٌ نفعَ أرضنا»[2].

فتأمل في هذا السموّ الإيماني، والاستجابة العظيمة! فعمٌّ رافع يصرّح بأن ما نهي عنه[3] له فيه خيرٌ وارتفاق ونفعٌ، ومع ذلك تَرَكَه وعلَّل بعلةٍ عظيمة: (وطواعية الله ورسوله خيرٌ لنا)، وابنُ عمر علل بهذه العلة -كما في الرواية الثانية- وصرّح في اللفظ الأول أنه كان متيقناً من أن كراء الأرض موجود في العهد النبوي، ومع ذلك تركه خشية -فقط مجرد ظن- أن يكون ثمة ما نسخَ هذا الحكم!

إن المواقف التي تحكي استجابة الصحابة بالمئات، لكن في هاتين القصتين استجابة تتعلق بموضوعنا هذا، فظهير وابن عمر لم يستفصلا، بل نفّذا مباشرةً، مع أن هذه أمورٌ تتعلق بأمر المعاش والأرزاق، وقد علمتَ -أيها القارئ الفطن- حال الصحابة

---

(١) مسلم ح(١٥٤٧).

(٢) مسلم ح(١٥٤٧).

(٣) حسب فهمه كما سبق.

الاقتصادية التي غلب عليها الضعف.

إن اللافت للنظر: أن الصحابة -رضوان الله عليهم- على مختلف مستوياتهم في العلم وطول الصحبة؛لم يُنقل عنهم -فيما أعلم- ذلك الاستفصال الذي نجده عند أهل عصرنا -والذي أشرتُ إليه في صدر هذه المقالة -بل كانوا ينفذون مباشرةً! وهذا -لعمر الله- سرٌ من أسرار تميّزهم وعلوّ شأنهم وجلالة قدرهم، فهم -في مقام الامتثال- لا يَسألون سؤال الذي يريد التخفف من العمل، بل يسألون سؤال الراغب في العمل والامتثال.

إننا -ونحن في زمنٍ اتسعت فيه دائرة التواصل، واختلاف الفتاوى والمفتين على الناس- بحاجة إلى غرس هذا الأصل العظيم، وهو: تعظيمُ شعائرِ الله، وتربيةُ الأجيال على هذا المعنى العظيم، الذي يختصر كثيراً من السبل في صلاح القلب وتوطينِه على فعل الطاعة وترك المعصية.

وهذا كلّه -كما هو ظاهر- ليس دعوةً إلى ترك التفقّه في معرفة الأحكام التكليفية! بل هو دعوة إلى تعظيم الأمر والنهي، «فهذه المنزلة تابعة للمعرفة، فعلى قدر المعرفة يكون تعظيم الرب تعالى في القلب، وأعرف الناس به: أشدهم له تعظيماً وإجلالا»[1].

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٦٣).

إن السؤال عن الحكم -وإن كان يحمد للسائل من جهة التثبت في معرفة الحكم، إلا أنه- يُذم من جهة عدم تعظيم الأمر والنهي، وإن لم يترتب عليه إثم بفعله -إن لم يكن محرَّماً- أو تركه -إن لم يكن واجباً.

وإن من إجلال الله تعالى وتعظيم شرعه: أن يوطِّن الإنسانُ نفسَه على ترك جميع المناهي -المحرمة والمكروهة- وفِعل ما استطاع من الأوامر -الواجبة والمستحبة- قال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾[الحج: ٣٠]، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[الحشر: ٧].

فتأمل -أيها الموفق- هذين الوصفين: التقوى، الخيرية! أتراهما يحصلان لمن يتهرب من الامتثال؟ أو يحاول الالتفاف على النصوص؟ أو تتبع الرخص؛ لعله يجد رخصةً أو فتوى يتخفف بها؟ أو من زوّر في نفسه فعل المكروه وترك السنن باستمرار وعلى سبيل الديمومة؟!

ومن البدهيات أنه ما من مسألة شرعية -قديمة أو نازلة- إلا ولها حكمٌ لا يخرج عن الأحكام التكليفية الخمسة: الوجوب، والسنية، والإباحة، والكراهة، والتحريم، ومعرفةُ هذه المسائل من فروض الأعيان على من يريد معرفة منازل الأحكام التي تَرِد في

النصوص -بلْهَ المتصدي للفتيا- وليس الحديث هنا عن هذه المسألة؛ وإنما الحديث عن مسألة: موقف المسلم -أياً كان- من الأمر والنهي الشرعيين! وأنه التسليم وسرعة الطاعة والتطبيق، وإنما الحديث عن عموم الناس الذين يتلقّون الجواب من أهل العلم عن أسئلتهم واستفتاءاتهم.

وأختم هذه الأحرف بالتنبيه لأمرين:

الأول: أن فائدة هذه معرفة المسلم أن هذا الأمر واجب أو مستحب أو مكروه أو محرم -مثلاً- حتى يعقد نيته عند العمل أو الترك على ذلك الحكم.

الثاني: أن معرفة ذلك يمكننا من توصيف الحكم الشرعي على الفاعل والترك من جهة لحوق الأوصاف الشرعية المترتبة على ذلك، هل هو فاسق، أم لا؟

اللهم ارزقنا تعظيم أمرك ونهيك، ويسّر لنا طاعتك، وارزقنا التلذذ بها.

والحمد لله رب العالمين.

***

الغبن في التوكل[1]

١٩/ ٥/ ١٤٣٤هـ

لا يختلف اثنان على أن التوكل على الله[2] من أجلّ العبادات القلبية، بل هو نصف الدين، والنصف الثاني الإنابة، «فإن الدين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة»[3].

وليس المراد من هذه الأسطر بيان منزلة التوكل، فالكلام فيها مشهور ومبسوط، بل الغرض الإشارة إلى معنيين دقيقين في هذه العبادة العظيمة، قد يغفل عنهما بعض الناس:

المعنى الأول: أن من الناس من يستحضر التوكل في أمور يسيرة وينساه أو يتركه في أمور كبيرة، ومنهم من يستحضره في أمر دنياه فقط كالرزق والشفاء والزواج والولد، دون أمور الآخرة، ومنهم يكون توكله مقتصراً على خاصة نفسه، دون نفع الخلق.

---

(١) المراد بالغبن: النقص.

(٢) ومن أوضح التعريفات له: «هو الاعتماد على الله تعالى في حصول المطلوب، ودفع المكروه، مع الثقة به، وفعل الأسباب المأذون فيها» ينظر: القول المفيد على كتاب التوحيد (٢/ ٨٧).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ١١٣).

وقد نبّه على هذه المعاني الدقيقة ابنُ القيم رحمه الله حيث قال: "وكثيرٌ من المتوكلين يكون مغبوناً في توكله! وقد توكل حقيقة التوكل وهو مغبون! كمن صرف توكله إلى حاجة جزئية استفرغ فيها قوة توكله، ويمكنه نيلها بأيسر شيء، وتفريغِ قلبِه للتوكلِ في زيادة الإيمان والعلم، ونصرةِ الدين، والتأثيرِ في العالم خيراً، فهذا توكلُ العاجزِ القاصرِ الهمة، كما يصرفُ بعضهم همتَه وتوكلَه ودعاءَه إلى وجعٍ يمكن مداواته بأدنى شيء، أو جوعٍ يمكن زواله بنصف رغيف، أو نصف درهم، ويدع صرفه إلى نصرة الدين، وقمع المبتدعين، وزيادة الإيمان، ومصالح المسلمين»[1].

وقال في موضع آخر: «فأولياؤه وخاصته يتوكلون عليه في الإيمان، ونصرة دينه، وإعلاء كلمته، وجهاد أعدائه، وفي محابه وتنفيذ أوامره.

ودون هؤلاء: من يتوكل عليه في استقامته في نفسه، وحفظ حاله مع الله، فارغاً عن الناس.

ودون هؤلاء: من يتوكل عليه في معلوم يناله منه، من رزق أو عافية، أو نصر على عدو، أو زوجة أو ولد، ونحو ذلك.

فأفضل التوكل، التوكل في الواجب -أعني واجب الحق،

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٢٥).

وواجب الخلق، وواجب النفس- وأوسعه وأنفعه التوكل في التأثير في الخارج في مصلحة دينية، أو في دفع مفسدة دينية، وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين في الأرض، وهذا توكل ورثتهم، ثم الناس بعد في التوكل على حسب هممهم ومقاصدهم، فمن متوكل على الله في حصول الملك، ومن متوكل في حصول رغيف»[1].

المعنى الثاني: مع عِلْمِ أكثر المسلمين بأهمية التوكل على الله في حياته، إلا أنه ربما عزب عن بال بعضهم استحضار هذه العبادة؛ بسبب كثرة ما يسمع من مديحٍ وإطراء، أو لشدة انغماسه في الحياة المادية، أو لكثرة ما يرى من ترادف النعم في الدين والدنيا؛ ولذا كان من الدعاء النبوي المأثور الذي ينبغي للمسلم أن يقوله طرفي النهار: «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين»[2]، وكان مكحول ومالك -رحمهما الله- لا يفتيان حتى يقولا: لا حول ولا قوة إلا بالله.[3]

وإذا أردنا أن نخصص الحديث قليلاً، فإن بعض الدعاة قد يبلغ به حبُّ الدعوة إلى الله منتهاه حتى يخالط لحمه ودمه، أو يجد نشاطاً

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١١٤).

(٢) سنن أبي داود ح(٥٠٩٠)، وصححه ابن حبان ح(٩٧٠).

(٣) ينظر: شرح السنة للبغوي (١/ ٣٠٦).

قوياً للطاعة والعبادة؛ فينسيه ذلك تَذَكُّرَ هذه العبادة الجليلة، أو يضَعُفُ استحضاره لها، اعتماداً على ما قام في قلبه من حب الدعوة، والرغبة في هداية فلان من الناس، أو ما يجده من نشاط للطاعة بسبب الأحوال الزمانية أو المكانية المحيطة به، كما لو كان في رمضان أو الحج، أو كان في الحرمين الشريفين! وهذا مما ينبغي أن يتوقاه العابد والداعية إلى الله تعالى، وأن تكون هذه العبادة العظيمة حاضرة في قلبه قبل عبادته ودعوته وأثناءهما، وفي كل وقت وحين، وأن يعلم أنه لولا توفيق الله له ما استطاع أن ينطق بتسبيحه، وأنه لولا توفيق الله لما اهتدى أحد.

وتأمل في ربط الشريعة هذا المعنى بقلوب أتباعها في مواضع:

منها: قول الحوقلة عندما ينادي المنادي: حي على الصلاة، حي على الفلاح! فيقولها حتى ولو كان جالساً في المسجد حين نودي للصلاة!

ومنها: في آيات سورة الفرقان التي تحدثت عن هذا المعنى بوضوح، وهي آيات جاءت في سياق الدعوة إلى الله، فقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٦ - ٥٨]، والحديث عن ارتباط التوكل بالدعوة في القرآن الكريم، كثير وعجيب.

فبهذا يتيقن العابد والداعية أنه لا حول ولا قوة ولا توفيق إلا بالله الذي بيده نواصي الخلق كلّهم، فيتبرأ من حوله وقوته، ويتعلق بواهب التوفيق والتسديد.

إن قيام التوكل على الله عند الملمات قدرٌ مشترك بين الدعاة إلى الله تعالى، وعلى رأسهم الأنبياء والمرسلون، وما قصةُ إلقاءِ الخليل في النار، ووقوفِ موسى أمام البحر، وقصةِ الصحابة بعد أُحد - وغيرها كثير- إلا نماذج لمواقف كثيرة، لكن الدعاة والعُبّاد يتفاوتون في استحضار هذه العبادة في حال الرخاء، للأسباب التي ذكرتها آنفاً، والموفق من وفقّه الله ليكون قلبها معموراً بهذه العبادة أينما حلّ، وحيثما يمّم وجهه: عابداً أم داعياً، فاللهم أعذنا من الغبن في ذكرك وشكرك وعبادتك.

❊❊❊

القولُ عند المَعْتَبَة

٢٧/ ٥/ ١٤٣٤هـ

حين يحدِّثك أحدٌ عن قصته مع عظيم؛ فستجد أنك تُنصت له، فكيف إذا كان هذا العظيم الذي يحدثك عنه هو سيد ولد آدم! ليجلّي لك في حديثه صورةً مِن صور عظمة أخلاق هذا النبي الكريم ﷺ؟! فلا بد أن تُنصت!

لنستمع لأنس رضي الله -الذي خدمَ النبي ﷺ عشر سنين- وهو يقول: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً، ولا لعاناً، ولا سباباً، كان يقول لأحدنا عند المعْتَبَة - أي: عند اللوم -: «ما لَهُ تَرِبَ جبينُه!»[1].

ويقول -أيضاً-: خدمتُ النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أف، ولا: لم صنعتَ؟ ولا: ألا صنعتَ؟[2]

فتأمل! هذا خادم، وصغير السن، فقد بدأ خدمة النبي ﷺ حين كان عمره عشر سنين، وكلاهما -صغر السن والخدمة- مظنةُ الخطأ

---

(١) البخاري ح(٦٠٣١).

(٢) البخاري ح(٦٠٣٨).

المتكرر، ومع هذا فلا يسمع منه أنسٌ طيلة السنوات العشر ولا كلمة (أُفٍّ)! بل كان يقول -إذا وُجد ما يوجب العتب-: «ما لَهُ تَرِبَ جبينُه!»، ومن كان كذلك فهو أبعد ما يكون عن اللعن والسبّ صلوات الله وسلامه عليه.

إنه هديٌ نبوي عظيم ومنهجٌ في التعامل مع من تربطنا بهم علاقات اجتماعية، وصداقات قوية؛ في توقّي العتاب ما استطعنا، فإن وُجِد سببُه فليكن برفقٍ ولين.

وإذا عتبتَ على امرئٍ أحْبَبْتَه ** فتَوَقّ ظاهرَ عيبِه وسِبابِه

وما حكاه أنس ﷺ إنما هو ترجمة عملية منه ﷺ لقول الله تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[الإسراء: ٥٣]، ولقوله تعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة: ٨٣] وفي قراءة سبعية: ﴿حَسَنًا﴾، فحُسْنُ المنطق هو أول الضمانات للسلامة من جرح اللسان، وعثرة الكلام، فالكلام إذا خرج «لا يمكن استرجاع بوادره، ولا يقدر على رد شوارده»[1].

وهذا الإمام ابن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ) يصف ما مرّ به من تجربةٍ شخصية، فيقول:

«كان لنا أصدقاءُ وإخوانٌ أعتدُّ بهم، فرأيت منهم من الجفاء وترك شروطِ الصداقةِ والأخوّة عجائب! فأخذت أعتبُ، ثم

---

(١) أدب الدنيا والدين (٤٤٢) بتصرف.

انتبهت لنفسي، فقلت: وما ينفع العتاب؟! فإنهم إن صلحوا فللعتاب لا للصفاء! فهممت بمقاطعتهم! ثم تفكرت؛ فرأيت الناس بين مَعارف وأصدقاء في الظاهر، وإخوة مباطنين، فقلت: لا تصلح مقاطعتهم؛ إنما ينبغي أن تنقلهم من ديوان الأخوة إلى ديوان الصداقة الظاهرة، فإن لم يصلحوا لها نقلتهم إلى جملة المعارف، وعاملتهم معاملة المعارف، ومن الغلط أن تعاتبهم»[1].

هكذا يصف ابن الجوزي (ت: ٥٩٧) أصدقاء زمانه، فهل تغير الأمر؟!

الحقيقة أن الطبيعة البشرية في مثل هذه الأمور لا يغيّرها الزمان كثيراً، بيْد أن المؤمن بقدر ما يحرص على فهم سنن الله في الأفراد وفي قسمة الأرزاق؛ إلا أنه يحرص أكثر على تلمّس هدي النبي ﷺ، الذي كمّله الله في خَلْقه وخُلقه، وهو الذي عاشر من الناس أصنافاً، وواجه من الطبائع ألواناً، ولقي ما لقي ﷺ من القريب والبعيد.

ومن المعلوم أن العلاقات الاجتماعية -على اختلاف مستوياتها- لا تخلو من مواقف يقع فيها الخطأ الذي هو صفة

---

(١) صيد الخاطر (٣٩١) ، وكلمة ابن الجوزي الأخيرة «ومن الغلط أن تعاتبهم» ليست على إطلاقها كما سيتضح بعد قليل.

ملازمة للبشر -كإخلاف موعد، أو تقصير في حق، أو تخلف عن مناسبةٍ لا ينبغي من مثله تركُها، ونحو ذلك- وهذا القدر مفهوم ومعلوم، لكن الإشكال في طريقة التعامل مع هذا الخطأ!

فكم من علاقاتٍ قديمة، وعِشْرةٍ طويلةٍ؛ هدمها سوءُ تعبير، أو كلمةٌ جارحة! جعلت ترميم العلاقة -بعد ذلك- صعباً، وإن عادت ففي الجدار شرخٌ كان يمكن تفاديه لو تلمّسنا الهدي النبوي في المعالجة الاستباقية لكيفية التعامل مع هذا النوع من المواقف، فكيف كان هديه ﷺ؟

وقبل أن تبدأ قصة العتاب، فمن الجميل أن نتذكر أموراً:

أولها: أن الكمال في الصداقة -مهما بلغت في العمق والقوة- لا تخلو من شيء يوجب العتاب، فلو هجر الصديقُ صديقَه لهفوةٍ بدرت منه؛ فلن يبقى له صديق:

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمّه ... على شعثٍ، أيُّ الرجال المهذبُ؟!

وقد عبّر عن هذا المعنى بشار بن بُرد، فقال:

إذا كنتَ في كلِّ الأمورِ مُعاتباً ... صديقَكَ لم تلقَ الذي لا تُعاتبُهْ
فعِشْ واحداً أو صِلْ -صديقك- إنّه ... مُقارفُ ذنبٍ مرّةً ومُجانبُهْ
إذا أنتَ لم تشربْ مِراراً على القذى ... ظمئتَ وأيُّ النَّاس تصفو مشاربُهْ

«وإذا كان الصفح عن الزلات من أفضل خصال الحمد؛ فأحق

الناس بأن تتغاضى عن هفواتهم رجالٌ عرفتَ منهم المودة، ولم يقم لديك شاهد على أنهم صَرفوا قلوبَهم عنها»[1].

وما زال التغافل -فيما لا يترتب عليه مفسدة- من شيَم الكرام، فلقد كان ﷺ يتغافل عن حماقات الكفار والمنافقين وسفاهاتهم، فخليق بأن تطبِّق هذا مع المسلم، فضلاً عن صديق أو مَن توثقت به صلتك، فالكمال عزيز، ولن تجد مَن تخالط إلا وفيه ما يصفو وما يُكدر، قال عثمان بن زائدة: قلت للإمام أحمد: العافية عشرة أجزاء، تسعة منها في التغافل، فقال: «العافية عشرة أجزاء، كلها في التغافل»[2].

ثانيها: أن نحاول الإجابة عن بعض الأسئلة قبل بدء العتاب: متى أعاتب؟ وكيف؟ وماذا بعد العتاب؟

أما متى؟ فالعتاب ينبغي أن يكون في أضيق الدوائر، وأن يكون بقدرٍ معقول؛ حتى لا يحصل عكس مقصوده، كما قال علي رضي الله عنه: «لا تُكثِر العتاب؛ فإن العتاب يورث الضغينة والبغضة، وكثرته من سوء الأدب»[3]، ولأن «كثرةَ العتاب سببٌ

---

(١) الصداقة، ضمن موسوعة مؤلفات العلامة محمد الخضر حسين (٤/ ١٨٥٧).

(٢) الآداب الشرعية (٢/ ٢٠).

(٣) روضة العقلاء (١٨٢).

للقطيعة، واطراحَ جميعه دليلٌ على قلة الاكتراث بأمر الصديق"[1]، وفي قصة أنس السابقة مع النبي ﷺ أبلغ شاهد.

وألِنْ جَنَاحَكَ مَا استلان لِودّهِ ... وأجبْ أخاك إذا دعا بجوابه

أما كيف أعاتب؟ فما أجملَ التلطفَ في العتاب، واللينَ في العبارة! كما سبق الإشارة إليه.

وماذا بعد العتاب؟ وهو سؤال مهم يجب تأمّله قبل إلقاء اللوم والمعتبة، فإن بقاءَ الصديقِ الصدوق، كثيرِ الفضائل على علةٍ فيه؛ خير من خسارته بسبب عتاب قد لا يحتمله، أو يفهمه على غير وجهه، وقد قيل: تناس مساوئ الإخوان؛ يَدُمْ لك وُدُّهم.

«والقول الفصل في هذا: أن ما يصدر من الصديق:

إن كان من قبيل العثرة التي تقع في حال غفلة، أو خطأ في اجتهاد الرأي؛ فذلك موضع الصفح والتجاوز، ولا ينبغي أن يكون له في نقض الصداقة أثر كثير أو قليل.

أما إن كان عن زهد في الصحبة، وانصرافاً عن الصداقة؛ فلك أن تزهد في صحبته، وتقطع النظر عن صداقته»[2].

---

(١) أدب الدنيا والدين (١٧٨).

(٢) الصداقة، ضمن موسوعة مؤلفات العلامة محمد الخضر حسين (٤/ ١٨٥٨).

وبالجملة: فغنيمة الأصدقاء الصالحين لا تتوقف عند الحياة، بل هي ممتدة إلى يوم الدين: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

❊❊❊

آلام من نوع آخر

٣/ ٦/ ١٤٣٤هـ

الألم معنى غير محبب للنفوس، لكن مَن نَظَر في بعض المواقف التي حفظتها كتبُ السُنّة وكتب التراجم وبعض قصص المعاصرين؛ وجد أن الألم يمكن أن ينتقل إلى معنى شريف، وحالةٍ يرجى لصاحبها المكانة العالية عند مولاه.

والمعنى الجامع لهذا الألم مردّه إلى الحسرة على فوات طاعة، أو الألم على وقوع ذنب!

يصور لنا القرآن مشهداً من مشاهد الألم الذي يعتصر القلوب على فوات طاعةٍ أهلها فيها معذورون، إنهم الذين جاءوا في ساعة العُسرة، راغبين في أن يحملهم النبي ﷺ على أي راحلة أو أي دابة! لكن الحال لم تكن لتُسعف بشيء من ذلك .. هنا يأتي دور الدموع؛ لتعبّر عما يختلج في النفوس، ويتردد في الصدور من حسرةٍ على فوات هذه الفرصة: ﴿ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة: ٩٢]! موقفٌ لا تصنّع فيه، بل هو موقف صدقٍ وإيمان، سجّله علاّم الغيوب، المطّلع على ما في الضمائر، وما تكنّه الأفئدة!

وهذا عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- جاء يوم الخندق بعد ما غربت الشمس، فجعل يسب كفار قريش، قال: يا رسول الله! ما كدت أصلي العصر، حتى كادت الشمس تغرب، قال النبي ﷺ: «والله ما صليتها...»الحديث.[1]

تأمل في هذا المشهد الذي يوضح لك الألم والحزن الذي اعتصر قلبه، والذي ترجمه الفاروق ﷺ بسبّ الكفّار الذين تسببوا في تأخير الصلاة عن وقتها[2]، مع أن عمر لم يكن إلا في شغل شاغل، وجهدٍ وجهادٍ في معركة وصف علاّم الغيوب حال أهلها بقوله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]، فيا ترى، ما الذي يحدث لمن يؤخرون الصلاة عن وقتها والشغل الشاغل لهم دون هذا بمراحل! هذا إن سلم من محذور شرعي!

ومشهد آخر له صلة بالتحسر على فوات الطاعة، في ترجمة سعيد بن عبدالعزيز -إمام أهل الشام في زمانه[3] - الذي كان إذا فاتته صلاة الجماعة بكى.

ومن المتألمين المعاصرين، من ظلّ يبكي من الفجر حتى المغرب لأن صلاة الفجر جماعةً فاتته.

---

(١) البخاري ح(٥٩٦) مسلم ح(٦٣١).

(٢) لم تكن صلاة الخوف شرعت حينئذ.

(٣) تنظر ترجمته: سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٨ / ٣٢).

ويأخذ الألم والتحسر صورةً أخرى، فثمة ألمٌ شريف الغاية، حسنُ العاقبة، وهو التألم على الوقوع في المعصية، والتحسر على ارتكاب الذنب، وفي قصة الغامدية ﷺ نموذج ناصع على ذلك!

إنك لتعجب من استمرار جذوة الألم في قلب الغامدية مدةً تقارب ثلاث سنواتٍ -وهي مدة الحمل والفطام- وهي تعلم أن عاقبة هذا الاعتراف الموتُ رجماً!

جاءت هذه المرأة التائبة النادمة، فقالت: يا رسول الله، إني قد زنيت فطهرني، وإنه ردها، فلما كان الغد، قالت: يا رسول الله، لم تردني؟ لعلك أن تردني كما رددت ماعزاً، فوالله إني لحبلى! قال: «إمّا لا، فاذهبي حتى تلدي»، فلما ولدت أتته بالصبي في خرقة، قالت: هذا قد ولدته، قال: «اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه»، فلما فطمته أتته بالصبي في يده كسرة خبز، فقالت: هذا يا نبي الله قد فطمته، وقد أكل الطعام، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين... الحديث.[1]

وثمة أسئلة تتبادر هنا: على ماذا نبكي نحن؟ وما الذي يوجب هذه الحال؟ ولماذا لا نجد هذه الحال الإيمانية -إلا من رحم الله- ونحن الذين نخطئ كثيراً؟

---

(١) مسلم ح(١٦٩٥).

لعل الأسباب التالية تكشف عن الجواب:

١. ضعف العلم بالله: وقد قيل: من كان بالله أعرف كان منه أخوف، وإن من أعظم الأبواب التي تعرّفنا بربنا أكثر: التدبر في كتابه، والتأمل في معاني أسمائه وصفاته، والنظر في ملكوته الكوني، يوضح هذا السبب الثاني، وهو وثيق الصلة بهذا السبب:

٢. ضعف التدبر للقرآن، فإن تدبره كفيل بملء القلب من خشية الله، والاطلاع على أسرار وأسرار من معاني كلام الله، وحقائق أسمائه وصفاته، ودلائل العبودية، التي تقود القلب إلى الانكسار، فما الذي يتوقعه المؤمن من تدبر أمثال هذه الآيات؟ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠، ٦١]، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج: ٢٧، ٢٨]، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦].

٣. الإصرار على الذنب، وعدم الاقلاع عنه، حتى تتراكم عليه أوضار السيئات، وتبعات المعاصي، وفي الصحيح: «تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عُوداً عُوداً، فأي قلب أشربها نُكت فيه نكتةٌ سوداء، وأيّ قلبٍ أنكرها، نُكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا، فلا

تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مِرباداً كالكوز مُجَخِّياً، لا يَعرف معروفاً، ولا يُنكر منكراً، إلا ما أُشرِب من هواه».[1]

٤. ضعف المحاسبة: فإن المحاسبة دليل على حياة القلب، وقائدةٌ لتمحيصه مما علق به من أوضار الذنب، وبقايا المعصية، فكم من دمعة سالت من قلبٍ نادم غسلت ذنوباً كثيرة! فعاد القلب مصقولاً كأنما خلق اليوم! يقول أبو داود الحفري: دخلتُ على كرز بن وبرة بيته فإذا هو يبكي، فقلت له: ما يبكيك؟ قال: إن بابي مغلق، وإن ستري لمسبل، ومنعت حزبي أن أقرأه البارحة، وما هو إلا من ذنب أحدثته.[2]

٥. الغفلة عن استحضار أثر الصلاة، التي قال الله فيها: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[العنكبوت: ٤٥]، فلو صحّت لنا صلاتنا على الوجه الذي يريده الله، لبكينا على ما يفوتنا من بركتها وخيرها، والله المستعان.

***

(١) مسلم ح(٢٣١).

(٢) حلية الأولياء (٥/ ٧٩).

مجلس مع البخاري

١١/ ٦/ ١٤٣٤هـ

من أي بلد أنت أخي؟ من الكنغو الشعبية.. من البوسنة.. من الفلبين.. من كوسوفا.. من الأردن.. من اليمن.. من مصر!

تذكرتُ مع هذا الحضور المتنوع -في بلدانه وأجناسه- الكلمةَ الشهيرة التي أطلقها الإمام الزهري: «هذا دينٌ من أخذ به عزّ، ومن تركه ذلّ»! هذا أبيض وذاك أسود، وهذا عربي وذاك أعجمي، هذا صغير وذاك كبير، وإمامنا صاحب الكتاب من بلاد بُخارى! التي أخرجت إمامَ الدنيا في الحفظ وفي فقه الحديث، أبا عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري (ت: ٢٥٦هـ) وارتبط اسمُه بأصح كتاب على وجه الأرض بعد القرآن! وليكون الكتاب الأبرزَ في عناية العلماء وطلاب العلم في حفظه، وشرحه، وسماعه، منذ أن انتشر في عصر مصنفه وإلى يومنا هذا، وإلى أن يرث الله الأرضَ ومن عليها.

وتأتي مجالس التعليق على صحيح البخاري -الذي تشرفتُ

بالمشاركة فيه[1]- صورةً من صور هذه الحفاوة بهذا الكتاب المبارك، والتي خرجتُ منها ببعض العبر والمعاني، أحببتُ تقييدها في هذه الأسطر القليلة؛ لعل الله أن ينفع بها:

أولاً: ماذا صنع البخاري حتى ينال هذه المنزلة؟ إنه الصبر، والصدق، وعلو الهمة، والاعتماد على الله تعالى، فصار علمه يقرأ في بيوت الله، منذ أن صنّف كتابه.

وطالبُ العلم الموفّق يعتبر بذلك، وأنه بقدر بذله وصبره على هذا الطريق يفلح ويظفر بإذن الله، وحينما نتذكر اشتراكنا جميعاً -نحن والأئمة- في قوله تعالى في سورة النحل -التي تسمى سورة النعم- ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨]، فإن هذا مما يدفع لسؤال الله العون والتوفيق مع بذل السبب، وسندرك بتوفيق الله.

ثانياً: يبحث الناس -في عصر القلق- عن السكينة والطمأنينة، وهاهي تتنزل في بيوت الله تعالى، حينما تترنم بكلامه، أو تقرأ حديثَ رسوله ﷺ! السكينة التي ذكرها النبي ﷺ

---

(١) ضمن سلسلة نظمها مكتب الدعوة ببريدة، وانعقدت في جامع الراجحي في بريدة، وشارك فيها عدد من المشايخ وطلاب العلم، وقد كان نصيبي من هذه المجالس يوم الخميس ٨/ ٦ / ١٤٣٤هـ.

في قوله: «إلا تنزلت عليهم السكينة»[1]، شيءٌ اتفق الحاضرون على ذوقهم لها، وشعورهم بها، وسيجده من يحضر هذه المجالس وأمثالها.

ثالثاً: مع طول هذه المجالس التي تمتد نحواً من ثنتي عشرة ساعة، تخللها بعض التوقف، إلا أن الجميع اتفق على عدم مللهم، فما السر؟ إنه عون الله تعالى، والبركة التي تصيبهم من جراء المكان وموضوع الدرس، فالمكان بيت الله، والحديث حديث رسول الله ﷺ.

يحدثنا الواقع عن جَلَد بعض الناس وصبرهم على مجالس اللهو واللعب، وصبرهم الساعات الطوال، وهاهي مجالس الحديث تنطق بصبر محبي سنة محمد ﷺ على طولها، ولئن كان المتحدث مضطراً للصبر لأنه مخوّل بالحديث، فما الذي يجعل طالباً لا يتكئ على جدار ولا غيره يواصل؟

إن هذا المعنى ليؤكد لنا بقاء الخيرية في هذه الأمة، وأنه يوجد في هذا العصر المليء بالصوارف مَنْ لديه الاستعداد للصبر على الطلب والتحصيل، فلا نامت أعين المتشائمين!

---

(١) مسلم ح(٢٦٩٩).

رابعاً: من أعظم الغنائم التي يخرج بها الحاضر لهذه المجالس - ولو لم يفهم حرفاً- هي: كثرة الصلاة والسلام على نبينا محمد ﷺ، تلكم الغنيمة التي بينها ﷺ بقوله: «**من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشراً**»[1]، ولو قلت إنه في هذا المجلس الذي تشرفتُ به سمعنا الصلاة والسلام عليه نحواً من ألفِ مرة لم أكن مبالغاً، وياله من شرف! يقول الإمام سفيان الثوري رحمه الله: «لو لم يكن لصاحب الحديث فائدة إلا الصلاة على رسول الله ﷺ؛ فإنه يصلي عليه ما دام في الكتاب»[2].

خامساً: من أعظم بركات هذه المجالس: التشبع من صحيح السنة، بل من أصح كتاب على وجه الأرض بعد القرآن. ومن المعلوم أن الإنسان إذا أدمن قراءة صحيح السنة-وتاجهُ الصحيحان- فستتكون عنده حصيلة مباركة من البيان النبوي، وتبدأ -مع الوقت والتفقه- نفسُه تنفر من ركيك الألفاظ ومنكر المعاني الذي امتلأت به الأحاديث الموضوعة المكذوبة على رسول الله ﷺ.

---

(١) مسلم ح(٣٨٤).

(٢) شرف أصحاب الحديث، للخطيب البغدادي (ص: ٣٦).

كما أنه -مع إدمان النظر- ستتضح عنده الصورة فيما يخص مجريات السيرة الصحيحة عنه ﷺ، ففي كتب السير -كما هو معلوم- يحصل توسّع في إيراد الأخبار التي قد يتسامح في ذكرها بعض المصنفين في السير، وقد يكون فيها ما يخالف الثابت في السيرة التي رويت بأصح الأسانيد، فتتكون عنده -مع طول الممارسة والمدارسة- ملَكَةٌ نقدية جيدة.

سادساً: من أهم الفوائد التربوية لأمثال هذه المجالس: أن يدرك طالب العلم عظيمَ الجهد الذي بذله هؤلاء الأئمة الأكابر في جمع السنة وتمحيصها، وأن يعرف قدْرهم، ويترحم عليهم، وكذلك أن يعرف قدْر نفسه، ورحم الله من وفّق لذلك.

سابعاً: لن يذوق طعم هذه المجالس من خاض في لجج المتاهات الفكرية التي شكّكته في مصادر الشريعة، وأدخلته في دوامة الحيرة، وسراديب الشك.

فيا طالب العلم، ومحب سنة محمد ﷺ! دونك هذه المجالس، فهي -والله- مغتسل بارد وشراب.

❊❊❊

دُلَّني على كتاب

١٨/ ٦/ ١٤٣٤هـ

أريد أن أحفظ الصحيحين؟ ما أفضل كتاب في التفسير؟ ما أحسن كتاب في السيرة النبوية؟ ما الكتاب الذي تنصحني به في الفقه؟ ما أجوَدُ كتاب شَرَحَ عمدة الأحكام وبلوغ المرام؟ ما أفضل الكتب لدراسة أصول الفقه؟ هل تنصحني بحضور درس العالم الفلاني؟ هل يناسب أن أسمع دروس الشيخ فلان في العلم الفلاني؟

تَرِدُ هذه الأسئلة وأمثالها في رسائل الجوال، وفي صفحات التواصل الاجتماعي، وفي البريد الإلكتروني، وفي غيرها من الوسائل!

والحقيقة أن الجواب عن مثل هذا السؤال -مع خفاء حال المسئول على السائل- من الصعوبة بمكان؛ ذلك أن الكتب كثيرةٌ جداً، ومستوياتُ السائلين في التحصيل العلمي والذكاء ليست واحدة، وأساليب العلماء ومناهجهم مختلفة في التقرير المسموع والمكتوب.

ومن هنا فإنه يحسن بالسائل أن يُبين حالَه؛ من حيثُ السنُّ، والتحصيلُ العلمي، والتخصصُ الذي يميل إليه ويهواه، وغير ذلك من الأمور التي قد تؤثر في الجواب.

وكذلك فإنه يحسن بالمسؤول أن يَسأل عن حال السائل قبل طرح الجواب الذي قد لا يناسب حال السائل، بل قد يقع عكس المراد!

وفي تنوع إجابات النبي ﷺ للصحابة الذين سألوه عن أفضل الأعمال؟ وأي الأعمال خير؟ ما يدل على هذا، ويرشد المجيب على أمثال هذه الأسئلة.

فهذا ابن مسعود يسأله: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها»، قال: ثم أي؟ قال: «ثم بر الوالدين» قال: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» قال: حدَّثني بهن، ولو استزدته لزادني.(١)

ويَسألُ رجلٌ النبيَّ ﷺ: أي الإسلام خير؟ قال: «تُطعم الطعام، وتَقرأ السلام على من عرفتَ وعلى من لم تعرف».(٢)

فإذا كان الصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين- وهُمْ هُم في الفضل والإيمان، وتميزهم بتلقيهم عن المعلم الأول ﷺ كفاحاً من غير واسطة؛ إلا أنهم ليسوا على درجة واحدة في الفهم والعمل،

---

(١) البخاري ح(٥٢٧)، مسلم ح(١٣٩).

(٢) البخاري ح(٦٢٣٦)، مسلم ح(٦٣).

ولهذا كان ﷺ يراعي حالَ السائل، وحاجتَه، وزمانَه، ومكانَه.

ونقرأُ في إجابات السلف الصالح لتلاميذهم أو مَن يطلب منهم الوصية؛ تنوعاً وتبايناً في الإجابات والوصايا، وهي نابعة من الأصل الذي أشرتُ إليه آنفاً.

ويعجبني الاستشهاد بتلك القصة التي رواها ابنُ عبدالبر في «الجامع» من طريق محمد بن حارث، في «أخبار سحنون بن سعيد»، أنه قال:

كان مالك بن أنس، وعبدالعزيز بن أبي سلمة، ومحمد بن إبراهيم بن دينار وغيرهم يختلفون إلى ابن هرمز[1]، وكان إذا سأله مالك وعبدالعزيز أجابهما، وإذا سأله ابن دينار وذووه -أي أقرانه- لم يجبهم! فتعرَّض له ابنُ دينار يوماً فقال له: يا أبا بكر! لم تستحل مني ما لا يحل لك؟ قال له: يا ابن أخي! وما ذاك؟ قال: يسألك مالك وعبدالعزيز فتجيبهما، وأسألك أنا وذويّ فلا تجيبنا؟ فقال: «أوقع ذلك يا ابن أخي في قلبك؟» قال: نعم! قال: إني قد كبر سني، ورَق عظمي، وأنا أخاف أن يكون خالطني في عقلي مثل الذي خالطني في بدني، ومالك وعبدالعزيز عالمان فقيهان، إذا سمعا مني حقاً قبلاه، وإذا سمعا مني خطأ تركاه، وأنت وذووك ما أجبتكم به قبلتموه.

---

(١) هو عبدالله بن هرمز أحد شيوخ الإمام مالك، له ترجمة في «السير» ٦/ ٣٧٩.

قال محمد بن حارث: هذا والله هو الدين الكامل، والعقل الراجح، لا كمن يأتي بالهذيان ويريد أن ينزل من القلوب منزلة القرآن![1]

وفي سِيَر أعلامنا وعلمائنا المعاصرين التطبيقية ما يجلّي هذا المعنى، فلقد كان مفتي الديار السعودية في وقته؛ الشيخ العلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله (ت: ١٣٨٩هـ) يرتب الدروس على ثلاث مراحل: مبتدئين، متوسطين، منتهين، وقريب منه شيخ مشايخنا العلامة السعدي رحمه الله (ت: ١٣٧٦هـ) حيث نَصب بعضَ كبار تلاميذه لتدريس الطلاب المبتدئين قبل أن يدخلوا حلْقَتَه.

ويمتد هذا المعنى ليشمل المعلّم في فصله، والمربي في محضنه، والوالدان في بيتهما؛ أن يراعوا هذا المعنى؛ ليتحقق الغرض المنشود، والهدف المقصود، وحتى لا تضيع الأوقات سدى، وتتبدد الجهود في غير طائل. والله الموفق.

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٩٤).

وجدتُ الكتاب

٢٥/ ٦/ ١٤٣٤هـ

طرحتُ المقالة الماضية - «دلني على كتاب - فقال بعض الأفاضل: لقد قطعتَ نصف الطريق في الجواب عن تلك الأسئلة! فكيف يمكن التدرج في الطلب؟! ولمن أستمع من أهل العلم الذين حُفِظت دروسهم الصوتية؟

والحقيقة أن مقالةً كهذه لا تحتمل التفصيل في ذكر مراتب التدرج في الطلب، ولكن حسبي هنا أن أشير إلى بعض المعالم؛ لأن «المختصرات والمطولات التي يؤسَّسُ عليها الطَلَب والتلقي لدى المشايخ تختلف غالباً من قُطْر إلى قُطْر باختلاف المذاهب، وما نشأ عليه علماء ذلك القُطْر من إتقان هذا المختصر والتمرس فيه دون غيره.

والحال هنا تختلف مِن طالبٍ إلى آخر باختلاف القرائح والفهوم، وقوة الاستعداد وضعفه، وبرودة الذهن وتوقّده»[1].

وفي بلادنا -حرسها الله- وبعد الصحوة العلمية التي قادها

---

(١) حلية طالب العلم: (١٥٧) بتصرف يسير.

علماء أكابر، وعلى رأسهم أشياخنا الكرام: ابن باز (ت: ١٤٢٠هـ)، وابن عثيمين (ت: ١٤٢١هـ) رحمهم الله؛ اختط الناسُ في رسم المناهج العلمية التأصيلية مناهج مختلفة، وطرائق شتى، لكنها -في الجملة- تجتمع على جملةٍ من المتون في شتى الفنون، سأشير إليها من باب التذكرة، ولكلٍّ وجهة هو موليها، والمهم أن لا يخرج طالبُ العلم عن جادة العلماء في التأصيل، في البلد الذي يترعرع فيه.

وثمة أمرٌ آخر ينبغي التوكيد عليه، وهو أن هذه الكتب المذكورة إنما هي لمرحلة التأسيس والتأصيل، لا التخصص الدقيق.[1]

ففي توحيد العبادة: «ثلاثة الأصول وأدلتها»، و«القواعد الأربع»، ثم «كشف الشبهات»، ثم «كتاب التوحيد»؛ أربعتها للشيخ محمد بن عبد الوهاب. رحمه الله.

وفي توحيد الأسماء والصفات: «العقيدة الواسطيه»، ثم «الحموية»، و«التدمرية»؛ ثلاثتها لابن تيميه. رحمه الله.

وفي الحديث: «الأربعين النووية»، ثم «عمدة الأحكام» للمقدسي، ثم «بلوغ المرام» لابن حجر، ثم «المنتقى» للمجد، ثم الانتقال لقراءة الجوامع والأصول الكبار؛ كالأُمّاتِ الست وغيرها.

---

(١) ولمزيد من التفصيل ينظر موقع مركز التبيان: http://www.altebiyan.com/ .

وفي المصطلح: «نخبة الفكر» لابن حجر، ثم «معرفة أنواع علوم الحديث» لابن الصلاح، مع الإفادة من شرح السخاوي لألفية العراقي.

وفي الفقه: «المنهج» للسعدي، أو «عمدة الفقه» لابن قدامة، ثم «زاد المستقنع» للحجاوي، أو «أخصر المختصرات» لابن بلبان.

وفي أصول الفقه: «الورقات» للجويني، مع شرح الفوزان، ثم «الأصول من علم الأصول» للعثيمين ، ثم «روضة الناظر» لابن قدامة.

وفي القواعد الفقيهة: «منظومة القواعد الفقيهة» للسعدي، ثم منظومة العثيمين مع شرحها له.

وفي الفرائض: «الرحبية» مع شروحها، أو: «البرهانية» مع شرحها للعثيمين.

وفي التفسير: تفسير السعدي، ثم «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير.

وفي أصول التفسير: رسالة السيوطي في أصول التفسير، ثم «المقدمة» لشيخ الإسلام ابن تيمية.

وفي السيرة النبوية: «الفصول» لابن كثير، ثم «زاد المعاد» لابن القيم.

وفي النحو: «الأجرومية»، ثم «القَطْر» لابن هشام، ثم «ألفية ابن مالك» ومن أيسر شروحها لعصرنا شرح الفوزان.

وفي العربية: ينبغي أن يعتني بأشعارها، كـ«المعلقات السبع» وشرحها للزوزني، والقراءة في «القاموس» للفيروز آبادي، فإن قصُرت همتُه؛ فليكن له حظ من العناية بغريب القرآن والسنة، ومِن أشهر الكتب: «غريب القرآن» لابن قتيبة، و«النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير.[1]

وأما ما يتعلق بالدروس الصوتية: فإنني أوصي بالعناية بدروس شيخنا العلامة محمد ابن عثيمين رحمه الله ففيها العلم المؤصّل، والرسوخ، والعبارة الواضحة.

وأختم بجميل من القول، دبّجته يراع عالم إمام مجرِّب في هذا الباب، ألا وهو العلامة السعدي حيث يقول -معلقاً على حديث: «احرص على ما ينفعك... »[2]:

«والحالة التقريبية: أن يجتهد طالبُ العلم في حفظ مختصر من مختصرات الفن الذي يشتغل فيه، فإن تعذر أو تعسر عليه حفظه لفظاً؛ فليكرره كثيراً، متدبراً لمعانيه، حتى ترسخ معانيه في قلبه، ثم تكون باقي كتب هذا الفن كالتفسير والتوضيح والتفريع لذلك الأصل الذي عرفه وأدركه؛ فإن الإنسان إذا حفظ الأصول وصار

---

(١) استفدتُ في أصل هذا السرد من كلام الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله، وأضفت وحذفتُ بحسب اختلاف وجهات النظر المبنية على نظرة في واقع الجهود المبذولة في التأصيل العلمي.

(٢) هو الحديث الثاني من الأحاديث التي شرحها الشيخ رحمه الله في كتابه «بهجة قلوب الأبرار» فانظر تخريجه، وفوائده في (ص: ٤٨ - ٥٥) -بتحقيقي- فكلامه نفيس ومهم.

له ملكة تامة في معرفتها هانت عليه كتب الفن كلها -صغارها وكبارها- ومن ضيّع الأصول حرم الوصول.

فمن حرص على هذا الذي ذكرناه، واستعان بالله؛ أعانه الله، وبارك في علمه وطريقه الذي سلكه.

ومن سلك في طلب العلم غير هذه الطريقة النافعة؛ فاتت عليه الأوقات، ولم يُدرك إلا العناء، كما هو معروف بالتجربة، والواقع يشهد به، فإن يسر الله له معلماً يُحسن طريقة التعليم، ومسالك التفهيم؛ تم له السبب الموصل إلى العلم» انتهى.

والله الموفق والهادي.

رجب الأصم

٣/ ٧/ ١٤٣٤هـ

عند دخول شهر رجب من كل عام، يتداول الناس جملةً من المسائل المتعلقة بهذا الشهر، فأحببت أن تكون هذه الأسطر مُلخِّصةً لجملة من أهم تلك المسائل، وذلك فيما يلي:

أولاً: سمّى العرب هذا الشهر برجب الأصمّ؛ لأنه لا تسمع فيه قعقعة السلاح للقتال.

ثانياً: شهر رجب أحد الشهور الأربعة التي حرّمها الله بقوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾

[التوبة: من الآية٣٦].

وحرمتها كانت معروفة في الجاهلية، فأقرها الإسلام؛ وبيّن ذلك النبي ﷺ بقوله: «السنة اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القَعْدة وذو الحِجّة والمحرمُ، ورجبُ مضر، الذي بين جمادى وشعبان»[1] ونسبة رجب إلى مضر؛ لأنها كانت تبالغ في تعظيمه، كما قال أهل العلم.

---

(١) البخاري ح(٣١٩٧)، مسلم ح(١٦٧٩).

ثالثاً: هل ورد في فضل رجب حديث صحيح؟ وهل صح في الأمر بصومه أو النهي عن ذلك حديث؟

وجواباً على هذين الأمرين أسوق كلاماً نفيساً للحافظ ابن حجر؛ حيث يقول:

«لم يرد في فضل شهر رجب، ولا في صيامه، ولا في صيام شيء منه معين، ولا في قيام ليلة مخصوصة فيه حديثٌ صحيحٌ يصلح للحجة، وقد سبقني إلى الجزم بذلك الإمام أبو إسماعيل الهروي الحافظ -رويناه عنه بإسناد صحيح.

ولكن اشتهر أن أهل العلم يتسمحون في إيراد الفضائل -وإن كان فيها ضعف ما لم تكن موضوعة- وينبغي مع ذلك اشتراط أن يعتقد العامل كون ذلك الحديث ضعيفاً، وأن لا يشهر ذلك، لئلا يعمل المرء بحديث ضعيف، فيشرع ما ليس بشرع، أو يراه بعض الجهال، فيظن أنه سنة صحيحة.

وقد صرح بمعنى ذلك الأستاذ أبو محمد بن عبدالسلام وغيره، وليحذر المرء من دخوله تحت قوله ﷺ: «من حدث عني بحديث يُرى أنه كذب، فهو أحد الكاذبين»[1] فكيف بمن عمل به؟ ولا

---

(١) شرح النووي على مسلم ٨/ ٣٩، مجموع «الفتاوى» ٢٥/ ٢٩٠، «المستدرك على مجموع الفتاوى» ٣/ ١٧٨، المنار المنيف (٩٧)، «لطائف المعارف» (٢٢٨).

فرق في العمل بالحديث في الأحكام، أو في الفضائل، إذْ الكل شرع»ا.هـ.

وقد ذكر بعض العلماء أنه لا يثبت في صوم رجب لا نهياً ولا ندباً حديثٌ صحيح، منهم: النووي، وابن تيمية، وابن القيم، وابن رجب.[1]

وبما قرره هؤلاء العلماء يتبين ضعف قول العلامة علي القاري في كتابه «الأدب في رجب" ص:(٢٤،٢٥): «وقد جاء في فضائل صومه أحاديث ضعيفة، تصير بكثرة طرقها قوية، مع أن الأحاديث الضعيفة الأحوال، معتبرة في فضائل الأعمال»ا.هـ.

رابعاً: كل ما تقدم في النهي -لو صح- إنما هو في إفراد شهر رجب وحده بالصوم، أما صومه تبعاً لغيره كصيام الأشهر الحرم أو صيام الدهر -عند من يرى جوازه- أو من يصوم يوماً بعينه كالإثنين والخميس، أو البِيْض، فلا بأس به، وممن قال بذلك من الصحابة رضي الله عنهم ابن عمر، وممن بعدهم: الإمام أحمد رحمه الله، نقل ذلك ابن رجب في «اللطائف»[2] والله أعلم.

---

(١) حلية طالب العلم (١٥٧) بتصرف يسير.

(٢) ينظر: اللطائف (٢٣٠)، وهو ظاهر كلام النووي في شرح مسلم ٨/ ٣٩، وشيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى ٢٥/ ٢٩١، وابن حجر في «التبيين» ص(٧٠،٧١).

خامساً: فهم بعض الناس خطأ أن كونه من الأشهر الحرم أن السيئة تتضاعف فيه، وهذا غلط، فمن الأمور المحكمات الواضحات في الشريعة أن السيئة لا تتضاعف من حيث العدد لا في الزمن الفاضل ولا في المكان الفاضل، وإنما تعظم من جهة كيفيتها، بحيث لو قُدِّرَ أن حجم السيئة في غير الزمان والمكان الفاضل بحجم النواة - مثلاً- فقد يكون حجمها في الزمان والمكان الفاضل بحجم الصخرة الكبيرة أو الجبل الصغير، والمؤمن -في أي زمان ومكان كان- ينبغي أن يعظّم شعائر الله، وحرماته، فإن ذلك من تقوى القلوب، ومن علامة خيريتها.

سادساً: من الأحاديث المشتهرة في هذا الشهر حديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «رجب شهر الله وشعبان شهري ورمضان شهر أمتي... ولا تغفلوا عن أول ليلة في رجب، فإنها ليلة تسميها الملائكة الرغائب، ... الحديث»[1] وهو حديث موضوع على النبي ﷺ لا يجوز نشره إلا على سبيل البيان والتحذير منه.

سابعاً: من الأمثال السائرة: «عش رجباً ترَ عجباً»، وقد قيل في

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٢ / ١٢٤)، وينظر: «اللآلىء المصنوعة» للسيوطي (٢/٤٨).

سبب وروده: إن الحارث بن عباد بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة طلّق بعض نسائه بعدما أسنّ وخرف، فخلف عليها من بعده رجل كانت تظهر له من الوجد به ما لم تكن تظهره للحارث بن عباد، فلقي زوجها الحارث بن عباد فاخبره بمنزلته منها، فقال له الحارث: عش رجباً ترَ عجباً، فصار يضرب مثلاً فِي تحول الدَّهْر وتقلبه، وإتيان كل يوم بما يتعجب منه.[1]

والله الموفق.

❊❊❊

(١) ينظر: أمثال العرب للمفضل الضبي (ص: ١٤٠)، جمهرة الأمثال (٢/٥٣)، الأمثال للهاشمي: ص:(١٦٦).

أنا صريح

١٠/ ٧/ ١٤٣٤هـ

رأيتُه وهو يُوجّه خطاباً قاسياً لذاك الرجل، وقد بدا على المخاطَب وجوم وذهول من هول ما سمع! خاصةً وأن ذلك التقريع كان بمحضر من الناس!

فعاتبته؛ فقال لي: أنا صريح! ليس عندي شيء أخفيه! والرجل قد أخطأ في كذا وكذا، ومَنْ يستحقُّ التوبيخ واجهته به!

هذا الموقف يتكرر أحياناً في بعض المجالس، وقد شاهدتُ مثله مراراً، والغالب أن من يفعله يرى نفسَه فوق مَن خاطبه!

والسؤال لذلك «الصريح»: ماذا لو أن أباه، أو من له سُلطة عليه؛ واجهه بما يكره -وهو مخطئ- كما فعل بهذا المسكين؟!

كلما مرّ عليّ مثلُ هذه المواقف تداعى إلى خاطري ذلك الموقف الذي وقع لنبينا ﷺ، وحدثتنا عنه عائشة رضي الله عنها: أنه استأذن على النبي ﷺ رجلٌ فقال: «ائذنوا له، فبئس ابن العشيرة -أو بئس أخو العشيرة» فلما دخل ألانَ له الكلام، فقلت له: يا رسول الله! قلتَ ما قلتَ، ثم ألنت له في القول؟ فقال: «أيْ عائشة! إن شر الناس

منزلة عند الله من تركه -أو وَدَعه- الناسُ اتقاء فحشه»[1].

بوّب عليه البخاري قائلاً: (باب من لم يواجه الناس بالعتاب) وقال في موضع آخر: (باب المداراة مع الناس، ويُذكر عن أبي الدرداء: «إنا لنَكْشِرُ في وجوه أقوام -يعني نتبسّم-، وإن قلوبنا لتلعنهم -أي تبغضهم-»)[2].

وموقف نبوي آخر؛ يجسد فيه النبي عليه الصلاة والسلام هذا الخلق الطيب، حين أهديت للنبي ﷺ أقبية من ديباج[3]، مزررة بالذهب، فقسمها في ناس من أصحابه، وعزل منها واحداً لمخرمة بن نوفل، فلما جاء قال: «قد خبأتُ هذا لك" قال الراوي: «وكان في خُلُقه شيء»[4] وفي رواية: «وكان في خُلقه شدة»[5].

لماذا لم يواجهه بما يكره، وذاك الرجل قد آذى الناسَ بفُحشه؟

---

(١) البخاري ح(٦١٣١)، مسلم ح(٢٥٩١).

(٢) البخاري ح(٦١٣١).

قال ابن الجوزي: «وقول أبي الدرداء هذا ليس فيه موافقة على محرم ولا في كلام، وإنما فيه طلاقة الوجه خاصة للمصلحة»، كما في لآداب الشرعية (١/ ٥٠).

(٣) الأقبية جمع (قَباء): ثوب يلبس فوق الثياب، أو القميص. القاموس الفقهي (ص: ٢٩٥). والديباج: الحرير. وذكر ابن حجر أن هذا كان قبل نهي النبي ﷺ الرجالَ عن لبس الحرير. فتح الباري لابن حجر (١٠/ ٢٧٠).

(٤) البخاري ح(٦١٣٢) واللفظ له، مسلم ح(١٠٥٨) عن المسور.

(٥) البخاري ح(٣١٢٧).

وهذا الآخرُ في خلقه شيء من العسر؟ ألم يكن قادراً -وهو الإمام الأعظم- أن يوبخهما ويؤدبهما؟ بلى! لكنه الخُلق العظيم، إذ ليس من المروءة ولا من الشجاعة توبيخ المخطئين ومواجهتهم بما يكرهون وهم وحدهم، فضلاً عن كونهم أمام الناس!

«ومَن أظهر الجميل والحسن في مقابلة القبيح ليزول الشر فليس بمنافق، لكنه يستصلح، ألا تسمع إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، فهذا اكتساب استمالة، ودفع عداوة، وإطفاء لنيران الحقائد، واستنماء الود وإصلاح العقائد، فهذا طب المودات واكتساب الرجال»[1].

إن مداراة الناس فنٌّ، وفرصةٌ لكسب القلوب، وتقليل المسافات بينها، وإلا فخسارة الناس سهلةٌ يُحسنها كلُّ أحد! لا يحتاج معها المرء إلا إلى لسانٍ فاحش، وخلقٍ بذيء، أما الذي لا يقدر عليه إلا كرام الناس: فهو الصبر على أذاهم، ومحاولة كسبهم قدر المستطاع، واحتمال نَزَقهم.

قال مسلم بن قتيبة: «الدنيا: العافية، والشباب: الصحة، والمروءة: الصبر على الرجال»، فسُئل: ما الصبر على الرجال؟ فوصَفَ المداراة.[2]

---

(١) الآداب الشرعية (١/ ٥١).

(٢) شعب الإيمان (١١/ ٤٥).

ويقول حميد بن هلال: «أدركتُ الناسَ يَعُدّون المداراة صدقةً تخرج فيما بينهم، وكان يقال: إذا بلغك عن أخيك ما تكره فالقه بما يحب، فإنك تُقْضِمُه جمرته وهو لا يشعر»[1].

في علاقاتنا الاجتماعية، وصِلاتِنا الدعوية؛ قد يَبْدر ما يوجب العتاب، أو التنبيه على الخطأ، وهذا مقبول إذا كان بقدر معقول، ويحقق المقصود من النصيحة، لكن الذي ينبغي أن يُحرص عليه: الأسلوبُ الذي يحقق المراد؛ بتصحيحِ الخطأ، وتأليفِ القلوب، وأن يغض الإنسان الطرف ما استطاع عن الهفوات، خاصة فيما لا يترتب عليه ضرر عام.

ولا بد من صحبة الناس على هذا الأساس، ولهذا قال الله لنبيه ﷺ وهو في مكة: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

«وهذه الآية من ثلاث كلمات، تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات:

فقوله: {خذ العفو} دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين.

ودخل في قوله: {وأمر بالعرف} صلة الأرحام، وتقوى الله في

---

(١) مداراة الناس لابن أبي الدنيا (ص: ٤٨).

الحلال والحرام، وغض الأبصار، والاستعداد لدار القرار.

ودخل في قوله: {وأعرض عن الجاهلين} الحضُ على التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنـزّه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة»[1].

قال ابن حزم: باب العقل والراحة كلها في اطراح المبالاة بكلام الناس، واستعمال المبالاة بكلام الخالق عز وجل.[2]

وليس المراد هنا أن يتعمد الإنسانُ مخالفةَ الناس أو يقصد إلى مخاشنتهم؛ كلا! بل المراد عدم التوقف عند بُنيّات الطريق، والكلمات العابرة، أو التقصير المعتاد في حق مثله، بل يتغاضى ويتغافل ما استطاع.

قال ابن عباس في معنى قوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [الرعد: ٢٢] أي الفحش والأذى بالسلام والمداراة.[3]

إن الصراحة والمواجهة التي توغر الصدور، وتفصم عرى المودة، وتزيد الإحن، وتقطع الصلات؛ صراحةٌ مذمومة، وهي إلى

---

(١) تفسير القرطبي (٧/ ٣٤٤).

(٢) الأخلاق والسير (ص: ١٧).

(٣) إحياء علوم الدين (٢/ ٢٠٧).

الحماقة أقرب، وإنما تُحمد الصراحة إذا كانت في مقابل المداهنة على حساب الدين، وبيانِ الحق، أما في شأن العلاقات والصِلات الاجتماعية؛ فالعاقل من حرص على استدامتها بالتودد إلى الناس كما سبق، يقول الحسن البصري رحمه الله: «التودد إلى الناس نصف العقل»[1].

وقيل لعبد الملك بن مروان: ما أَفدتَ في ملكك هذا؟ قال: مودة الرجال[2]، والله الموفق.

❋❋❋

(١) مداراة الناس لابن أبي الدنيا (ص: ٥٠).

(٢) أدب الدنيا والدين (ص: ١٨١).

١٣٠,٠٠٠ دقيقة قادمة (٢/١)

١٧/ ٧/ ١٤٣٤هـ

ما إن تقبل الإجازة الصيفية إلا وتجد الغيورين والمهتمين بأمر أبنائهم وبناتهم في همّ وقلق من آثار مثل هذا الفراغ الذي سيبدأ فور انتهائهم من اختبارات نهاية العام!

إنه قلق من ذهاب نحو من ١٣٠,٠٠٠ دقيقة هي وقت الإجازة الصيفية تقريباً.

ووجود القلق له جانب إيجابي إنْ حمَلَ على أن يبحث ركنا الأسرة -من أم وأب- على ما يعين على استثمار هذا الفراغ في النافع المفيد، وإلا ربما أصبح أثرُه السلبي خطيراً وكبيراً، أما إن كان القلق لمجرد القلق فقط من غير عمل -مع القدرة على ذلك- فهذا قلق العاجزين، وهو قلق سلبي لا يقدِّم ولا يؤخِّر!

إن كثيراً من الناس -وللأسف- لا زال يتعامل مع الوقت على أنه شيء ثانوي، ولا يتحرج من إهداره، والعبث به، فضلاً عن أن تتحرك فيه الغيرة عليه، ومن المحزن أن تنقلب الإجازة عند بعض الناس إلى محضن للكسل، والتربية على الغفلة والدعة واللامبالاة، والاستغراق في الترفيه غير المنضبط في وقته ومضمونه!

ولا ريب أن الترفيه من الحاجات النفسية المهمة، والإنسان والأسرة بحاجة إلى الاستجمام والراحة، لكن الترفيه لا يكون بالمحرمات، والراحة لا تعني الكسل، وغياب الهدف، كما أن الاستجمام لا يعني العبث، وضياع الدين، أو ضعف الفاعلية والعطاء.

إن العناية بالوقت -كما أنه ديانة وتعبد- فهو ثقافة وتربية، والإحساس بقيمة الوقت هو بداية التصحيح، وبعث الهمم.

إن الحديث في هذا الموضوع طويل جداً، ومتشعب، وحسبنا في هذا المقام أن نذكّر بأمرين مهمين جداً؛ يعينان على الاستفادة من هذه الإجازة:

أولاً: من أهم ما تُربى عليه الأسرةُ في جميع أوقات السنة - فضلاً عن فترة الإجازة- أن الحياة بلا هدف؛ حياة لا قيمة لها!

إن مَن تأمل في واقع كثير من الناس؛ فسيجد أنهم يعيشون -في هذه الحياة- بلا هدف يُذكر أو طموح، فغاية الأكثرين: أن يُوفِّر لقمة عيشة له ولأولاده فقط!

وقد يتساءل كثيرون: لماذا يكون لي هدف؟ وما العائد الذي

سأجنيه من ذلك الهدف؟ وهل الطموح سيجعلني مميزاً عن الآخرين؟ ولماذا نرى الكثير من الناس يعيش في هذه الحياة ويجني النجاحات وهو إنسان غير طامح ولا يعيش لهدف؟ والإجابة على هذه التساؤلات معروفة، ولكن لا مانع من التذكير بها:

إن تحديد الهدف في الحياة يحقق لك أموراً عظيمة، من أهمها:

١- يختصر لك الجهد والوقت: فتتوجه نحو هدفك مباشرة، وتسعى بكل قوتك لتحقيقه.

٢- تتعرف على طريقك: سأل رجلٌ يوماً صديقَه وهو يقف على مفترق الطرق: أين أذهب؟ وأي طريق أختار؟ فقال: وأين وجهتك؟ قال: لا أدري! فقال له: فاذهب في أي طريق! وهكذا هي حياتك؛ إن لم يكن لك هدف فاذهب حيثما تشاء، ولا يهم ما هو الطريق الذي ستختاره.

٣- تحديد الهدف يشعرك بالإنجاز: فعندما يكون هناك هدفٌ تسعى لتحقيقه، وطموح تسعى للوصول إليه؛ تشعر بالإنجاز، وأنك حققتَ شيئاً يُذكر، ولكن إذا لم يكن لك هدف يُذكر، وأيامك متكررة؛ فكل من حولك يستطيع أن يمثلك ويعوض غيابك!

فما أجمل أن تكون الإجازة فرصةً لتربية الأسرة على هذا المعنى العظيم!

وجميلٌ أن يحدد رب الأسرة -بالمشاورة مع بقية أفراد الأسرة- هدفاً يريدون تحقيقه في هذه الإجازة، وليكن هذا الهدف بحسب المرحلة العمرية، والقدرات.

إن حفظ بعض أجزاء من القرآن، أو ضبط ما سبق حفظه هدف!

وإتقانَ التعامل مع الحاسب الآلي هدف!

وإنهاءَ مجموعة من الكتب المفيدة في هذه الإجازة هدف!

والالتحاقَ بدورة تدريبية أو أكثر هدف!

وتقويةَ الصلة ببعض الأقارب هدف!

وتعويدَ الأبناء على تحمّل بعض مسؤوليات المنزل الملائمة لسِنِّهم وقدراتهم هدف!

وهكذا، يمكن وضع مجموعة من الأهداف المناسبة للوقت والقدرات، وحينما تنتهي الإجازة فسيجد كلُّ فرد من أفراد الأسرة أنه قد حقق هدفاً أو أكثر، وسيشعر بتطور ذاتي، وانتقال من مرحلة إلى أخرى، وما بناء الذات إلا هكذا.

وثمة أمرٌ آخر لكي ننجح في تحقيق أهدافنا لا بد من توافره ووجوده، وهو محور حديثنا في المقال التالي.

❊❊❊

١٣٠,٠٠٠ دقيقة قادمة (٢/٢)

٢٤/ ٧/ ١٤٣٤هـ

ذكرتُ في الجزء الأول من هذه المقالة ضرورة العناية بالتربية على أهمية الوقت، وتنشئة الأسرة على هذا المعنى، وأشرتُ إلى أنه حتى نستفيد من الإجازة؛ لا بد من مراعاة أمرين:

أحدهما: أهمية تحديد هدف أو أكثر في الإجازة لتحقيقه، وذكرت بعضاً من فوائد تحديد الأهداف، وقلتُ في خاتمة المقالة: وثمة أمرٌ آخر لكي ننجح في تحقيق أهدافنا لا بد من توافره ووجوده، وهو الأمر الثاني الذي سيكون محور هذا الجزء الأخير من هذه الهمسات، وهو:

ثانيهما: أنه يجب أن يكون البيت مهيئاً من الناحية النفسية والعاطفية بين الأبوين وبين بقية أفراد الأسرة؛ فإن الإبداع لا ينبت في بيئة مليئة بالصراخ الذي لا ينتهي بين الأبوين.. والتميز لا يظهر في بيت لا يقوم أفرادُه على احترام بعضهم البعض.

ماذا تتوقع من شاب أو شابة يرون والديهم في شجار ونزاع وصراخ من الطرفين أو أحدهما؟ وكيف تتصور شخصاً في مقتبل

شبابه يحطِّم فيه والدُه أجنحة الإبداع التي بدأ الابن يطير بها بكلمات تجريح وإهانة؟!

لنكن واقعيين -أيها الآباء والمربون- ما الذي يرغب الابنَ في الجلوس في بيتٍ هذه بعض أحواله؟! وما الذي يجذب الابن إلى بيت جمع بين جفاف العواطف، وحرارة الصيف؟ فلا برامج مناسبة في البيت، ولا عواطف، ولا جو أسري جيد!!

لا خيل عندك تُهديها ولا مالُ ... فليسعد النطقُ، إن لم يسعد الحالُ!

إن الملاحظ أن كثيراً من أفراد المجتمع تربى بطريقةٍ أو بأخرى على العجز، وانتظار ماذا يصنع له الغير؟ حتى صار يَوَد أن يجد أناساً يُربُّون له أبناءه بدلاً من معاناة ذلك بنفسه، مع أن الله تعالى وجّه الخطاب لكل من ولاّه أمراً من هذه الأمور فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦]، وفي الصحيحين من حديث ابن عمر: "**كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته**"![1]

بعض الناس صار ينتظر من المؤسسات الحكومية أو الجهات

---

(١) البخاري ح(٨٩٣)، مسلم ح(١٨٢٩).

الخيرية أن تتولى تربية أبنائه وبناته، فإذا انتهت المدرسة؛ بدأ بعض الآباء يترقب برامج التنشيط السياحي! أو المراكز الصيفية، أو حِلق تحفيظ القرآن؛ ولذا تجده محتاراً بعد انقضاء هذه المناشط، لا يدري ماذا يفعل!

وما هكذا يكون حال الذين يُدركون عظم الأمانة الملقاة على عواتقهم.

المشكلة كبيرة بلا ريب، ولكن علينا أن نفكر بجدٍ -لا تردد فيه- في حل هذه المشكلة التي يكوّن زمنها قرابة رُبعِ أيام السنة، وأن نتدارس المسألة مع من نثق بهم من المربين والمصلحين -إن كان أحدنا لا يجد من نفسه قدرة على تشخيص المشكلة وإيجاد الحل.

ما لم نقتنع بإمكانية التغيير فهذا أول الفشل، فإن التغيير يبدأ من الذات، فهو يبدأ من النفس، لا من الخارج.

وبعد هذا كله، فمهما اجتهد الإنسانُ وتعب ورتّب ونظّم، فهو مضطر إلى أن يتعلق بربه، يدعوه ويسأله، وينطرح بين يديه في سؤال صلاح الذرية، كما كان الأنبياء والصالحون: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ

﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥]، وليردد بصدق: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، ولا تخل دعاءك من: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

وإن رجلاً يُلِح على الله بمثل هذه الدعوات، مع فِعل ما يستطيعه من أسباب؛ لا يخذله الله إن شاء الله! وربنا الرحمن المستعان.

أندونيسيا تتدبر القرآن

١٣٤/ ٨/ ١٤٣٤هـ

مما تَقَرُّ به عينُ المسلم: انتشار حلقات تحفيظ القرآن الكريم في طول العالم الإسلامي، والحرص الكبير على تنظيم المسابقات في حفظه وتجويده، ونشر ذلك بين المسلمين -عربِهم وعجمِهم.

ولا ريب أن هذا ليس هو القدر المطلوب في علاقة المسلمين مع كتاب ربهم، بل يجب أن تنتقل الأُمّة إلى المقصد الأكبر من نزول القرآن، وهو تدبره والعمل به: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١].

وفي سبيل تحقيق هذا المقصد النبيل؛ انطلق -يومَ الأربعاء الثامن عشر من شهر رجب من عام ألف وأربعمائة وأربعة وثلاثين- وفدٌ مكوّن من عدد من المهتمين بتدبر القرآن -على رأسهم أ.د.ناصر العمر، وكاتب هذه الأسطر، وآخرون- إلى أقصى جنوب شرق آسيا، حيث أكبر البلاد الإسلامية من حيث تعداد السكان، الذين قارب عددهم ربع مليار نسمة، إلى أندونيسيا تحديداً.

لقد سبقتنا البشائر قبل أن نصل، حيث علِمْنا بعناية بعض الدعاة هناك بنشر عبادة التدبر، وتربية الناس عليها، في جهود متفرقة، تنشط حيناً وتفتر حيناً آخر.

وقد علَّمتْنا التجارب والأيام أن العمل الفردي -مهما بلغ حماسُ صاحبه له- عرضةٌ للضعف والفتور، وربما التوقف! وهذه مآلاتٌ لا تليق بالمشاريع العادية، فكيف بمشروع يتعلق بكتاب الله، وبعبادةٍ من أخص عباداته!

ومن هنا كان الترتيب لزيارة هذا البلد؛ من أجل إطلاق حملةٍ اختير لها شعار: (أندونيسيا تتدبر القرآن)، وتحتها عدد من الفعاليات، أهمها اثنتان:

الأولى: محاضرة لفضيلة أ.د.ناصر بن سليمان العمر -رئيس الهيئة العالمية لتدبر القرآن سابقاً- ألقاها في جامع الاستقلال، وهو أكبر جوامع أندويسيا، ومن أكبر الجوامع في العالم، وقد حضرها ٢٥ ألفاً، وبحضور رسمي وإعلامي كبير.

الثانية: افتتاح وزير الشؤون الدينية في أندونيسيا لـ(الهيئة الأندونيسية لتدبر القرآن الكريم) برئاسة الشيخ محمد زيتون، ونيابة الشيخ يوسف بختيار، وكان هذا

الافتتاح قبيل محاضرة الدكتور ناصر المشار إليها آنفاً.

لقد كان يوماً مجيداً من أيام أهل القرآن هناك، رأيتُ وسمعتُ مَن بكى من الحضور حين أُعلن عن انطلاق الهيئة الأندونسيسة، وحُقّ لهم هذا الفرح، وحُق لهم هذا البكاء؛ لأسباب، منها:

١) أن أندونيسيا بلد له ثقله من حيث التركيبة السكانية، وفيه أعراق كثيرة، ولغات متباينة، وهم -كغيرهم من الأمم والشعوب الإسلامية- لن تجد أكثر من القرآن قوةً في جمعهم وتقريب قلوبهم، إذا بُيّنت معانيه، وفُسِّرت آياته على طريقة السلف الصالح، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من الأمم والشعوب الإسلامية.

٢) ومنها: أن البلد مفتوح لكل من يسبق للعمل، فالنصارى يعملون على تنصير الناس؛ مستغلين فقرَهم وحاجتَهم، وكذلك الرافضة مجتهدون في نشر مذهبهم الباطل، وتصدير الثورة؛ مستغلين ما استغله النصارى، أفلا يفرح السُني بقيام أي مشروع يقوّي ارتباط المسلمين بدينهم؟! فكيف إذا كان هذا المشروع متعلقاً بكتاب الله! مع ضعف الجهود المبذولة في الجملة -من أهل السنة- لنشر المنهج الصحيح البعيد عن البدع والضلالات، والانحرافات العلمية والعملية، مقارنة بجهود الرافضة التي لا تكلّ ولا تفتر، والله المستعان.

٣) ومنها: أن هذه البلاد لها عناية بتحفيظ القرآن -كما يلحظ من نوعية المشاركين في المسابقات الدولية-، وفيها **أكثر من نصف مليون مسجد رسمي**، فضلاً عن المساجد غير المسجّلة عند الجهات الرسمية، فانتشار عبادة التدبر -بمفهومها الإيماني والعلمي-، سيختصر كثيراً من طريق إصلاح القلوب، وتعبيدها لرب العالمين، خاصة مع ماهو ملموس مِن إقبالٍ على الخير، وما تحمله قلوبُ هذا الشعب الكبير من عاطفة صادقة تجاه الإسلام، وحُبٍّ للقرآن، وتعلّق عاطفي به.

إنني أُدرك أن التحديات كبيرة، والمشوار طويل، ولكنني -في الوقت ذاته- موقن بأننا مأمورون بالعمل بأقصى ما نملك من قدرات وطاقات لخدمة كتاب ربنا، وسنة نبينا ﷺ، كلٌّ في ميدانه الذي يُحسنه، ويجد نفسه مبدعاً فيه، مع صدق التوكل على الله، وستكون النتائج فوق المأمول بحول الله، فإن الرب الذي يعطي على الحسنة عشر أمثالها إلى أضعاف كثيرة؛ سيعطي على العمل الذي حقق شروطَ القبول والنجاح مثل ذلك، وما نحن إلا بفضل الله وكرمه وتوفيقه.

إن حقّاً على الدعاة إلى الله عامة -وفي أندونيسيا خاصة- أن يتعاونوا ولا يتصارعوا، يجتمعوا ولا يتفرقوا، يبنوا ولا يهدموا،

وأن تسُوْد بينهم روحُ التناصح لا التفاضح، وتسديد الخلل، لا نقض البناء، وأن يدركوا أن حجم الاختلاف الذي يوجد بين أكثر الجماعات المنتسبة إلى منهج السلف؛ يمكن حلُّه بالتشاور، والحوار المتجرد عن الهوى، والذي يُراد منه الوصول إلى الحق لا نصرة القول الشخصي، وعدمِ التعصّب للرأي المبني على اجتهاد سائغ، خاصةً وأن أمامنا عدواً أكبر وهو التنصير، وبدعاً خطيرة بدأت تسري في المجتمع، وعلى رأسها الرفض.

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا المشروع، ويجعله فاتحة خير لوصول هدايات القرآن لإخواننا هناك.

❊❊❊

المبادرون

٩/ ٨/ ١٤٣٤هـ

إن المتأمل في سِيَر العظماء والمؤثرين في العالم سيجد أن مِن أبرز سماتهم، ومفاتيح تأثيرهم في مجتمعاتهم هو: روح المبادرة.

وما المبادرة؟ إنها باختصار -ما عبّر عنه القرآن-: المسارعة، والسبق إلى تحمل مسؤوليةٍ، أو القيام بعمل يقتضيه الحال.

وفي ديننا العظيم، تكون هذه المبادرة ممدوحةً إذا كانت مسارعة ومبادرة إلى فعل الخير بمفهومه الشامل: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة:١٤٨]، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾[المؤمنون:٦١]، من غير أن ينتظر الإنسان أن يُنادَى، أو يُدعَى من قِبَل الآخرين إلى فعل هذا الأمر أو ذاك، بل يجد مِن نفسه دافعاً وحافزاً.

ومن قرأ القرآن بتدبر وتأمل لاح له حفاوةُ القرآن بهذا المعنى الشريف، قبل أن يكتشفه ستيفن كوفي -والذي له فضل السبق في جمع تلك الصفات المشهورة للناجحين- ولعل في الآيتين السابقتين ما يدلل على هذا المعنى، وإليك أمثلةً أخرى:

١) وصف الله تعالى عمومَ الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

فتأمل في دلالة الفعل المضارع (يسارعون)، و(يدعون) فهذه هي حالهم وصفتهم دوماً.

٢) تأمل في مبادرة موسى عليه الصلاة والسلام في قضاء حاجة المرأتين في سقي الماء لهما؛ لما رأى أنهما لا تستطيعان السقي بسبب وجود رجال على الماء، وهُنّ لا يستطعن مزاحمة الرجال ديناً وحياءً، فبادر -عليه الصلاة والسلام- مِن دون أن يضطرهما إلى أن تطلُبا منه ذلك، وهكذا هم العظماء والمؤثرون.

٣) كم -كذلك- في قصة يوسف من ألوان المبادرة! ومن ذلك:

أ - مبادرته بدعوة السجناء، مع أنهم لم يطلبوا منه إلا تفسير الرؤى.

ب - لم يَتوان عن عَرض نفسه ليكون مسؤولاً عن خزائن الأرض -كما قاله طائفة من المفسرين وإن خالف غيرهم-! ويالها من مسؤولية!

ج - مبادرته بالعفو عن إخوته، والصفح عنهم، وعدم تذكيرهم بخطأهم.

إلى غير ذلك من صور المبادرة الإيجابية في حياته عليه الصلاة والسلام.

أما إذا قَلّبت سيرةَ نبينا وإمامنا محمد ﷺ فإنك واجدٌ عجباً!

فمنذ أن وَطئت قدماه أرضَ المدينة النبوية؛ قام بعِدة مبادرات مهمة، منها:

أ - عقد الأخوة بين المهاجرين والأنصار.

ب - عقد الصلح مع اليهود، فالدولة ما زالت ناشئة، وهم أهل غدر، ولا يصح عقلاً ولا شرعاً -حينها- فتح جبهات مع أناس لهم قَدَم وحضور كبير في المدينة.

ج - بناء المسجد؛ ليكون مكاناً يربي فيه أصحابَه، ويُعلمهم الكتابَ والحكمةَ، ومكاناً للفتوى والقضاء، إلى غير ذلك من الوظائف العظيمة التي حفل بها ذلك المسجد المبارك.

في سلسلة كبيرة من المبادرات المهمة، التي كان لها الأثر الأكبر في تكوين دولة ناشئة قوية في ظروف صعبة جداً.

وأما حياة الصحابة -رضي الله عنهم- ومَن بعدهم من الأئمة ففيها من العجائب الشيء الكثير، وأكتفي بذكر مبادرتين كان لهما الأثر الكبير على هذه الأمة منذ أن نُفِّذتا إلى يومنا هذا وإلى يوم القيامة، وهما:

١- مبادرة الصديق بمشورة من الفاروق ﷺ إلى جمع

المصحف من السَّعَف[1]، واللِّخف[2]، والجلود، بعد أن قُتل كثيرٌ من القراء في حروب الردة، ثم تمم هذه المبادرةَ المباركةَ أميرُ المؤمنين عثمان -رضي الله عنه- حين جمع الناس على حرف واحدٍ؛ خشية أن تختلف هذه الأمة في كتابها كما اختلف أهل الكتاب من قبلنا.

٢- مبادرة الإمام البخاري إلى التأليف في الصحيح المجرد من الأحاديث الضعيفة، ثم تبعه المصنفون في هذا الباب.

فتأمل -أيها المبادر- كم لهذين العملين من أثر علينا ونحن في هذا القرن المتأخر نسبياً، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

والمقصود من هذه الأمثلة: أن يسعى الإنسانُ للانطلاق والتأثير في أي مجالٍ يحسنه ويتقنه، ويبدع فيه؛ فالأمة بحاجة إلى جهود جميع أبنائها، وقد شبعت من الغثائية التي طفحت على جميع المستويات بلا استثناء!

إن من المؤلم أن ترى شاباً آتاه الله قدرات، وطاقات، ومواهب، وأمَّته تنتظر منه الكثير، فإذا به يرضى بالدون والدعة، ويتفنن في تضييع الوقت وقتله هنا وهناك، ويُعرض عن المشاركة - مع كثرة

---

(١) السعف: هِيَ أغصانُ النَّخيلِ. وَقِيلَ إِذا يبِسَت سميَت سَعَفَةً، وَإِذا كَانَتْ رَطْبَةً فَهِيَ شَطْبَة. النهاية (٢/ ٣٦٨).

(٢) اللِّخافُ: حِجَارَةٌ بيضٌ رِقَاقٌ، وَاحِدَتُهَا لَخْفَةٌ. مقاييس اللغة (٥/ ٢٤١).

الإلحاح عليه - في نفع أمته، ومجتمعه، ووطنه؛ هرباً من النقد! أو خوفاً من الفشل!

اقرأ في سير العظماء، وعلى رأسهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والصحابة رضوان الله عليهم، وغيرهم من المؤثرين في أممهم؛ فستجد في سيرهم عجباً، وفي أخبارهم عبراً.

ولنتذكر جيداً أن الذي لا يُخطئ هو الذي لا يعمل! فلندع الكسل جانباً، ولنكن مبادرين، حتى نكون مؤثِّرين ونافعين، ولنتأمل جيداً وصف الله لطائفة مؤثرة نافعة في أمتها، في قوله سبحانه: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران:١١٣، ١١٤].

❊❊❊

المثبِّطون

١٥/ ٨/ ١٤٣٤هـ

في واقعنا الاجتماعي طاقاتٌ كثيرة وكبيرة، بعضُها يُكتشف مبكراً، وبعضها يموت وتموت معه طاقته، وإذا تأملتَ في أسباب ذلك؛ وجدتَ التثبيط، والتحطيم النفسي من بعض الناس الذين يعيش بينهم ذلك الشخص مِن أكثر الأسباب تأثيراً.

لقد طرحتُ سؤالاً على من شرَّفوني بمتابعتهم في صفحتي بـ(تويتر): هل سبق أن حاولتَ المبادرة لعمل إيجابي، فسمعتَ من يثبطك؟ وهل تأثرتَ بكلامه، أم مضيتَ في مبادرتك؟

كثير من الإجابات كانت إيجابية، وفي الوقت ذاته فعدد غير قليل منها يوحي بأثر الكلمة المثبِّطة، إلا أن الجميل في بعض إجابات المتابعين، أنهم جعلوا كلمة التثبيط وقوداً ينطلقون به لتحقيق ما عزموا عليه من عمل نافع وبنّاء، حتى قال بعضهم: لم تزدني الكلمةُ إلا إصراراً على المضي؛ لأثبت لهم أن فكرتي ناجحة، ومبادرتي يمكن تحقيقها.

ذكّرتني هذه الإجابات الموفّقة بموقف رائع للحَبر ابنِ عباس

ﷺ حين كان في صباه المبكِّر، الذي لقي تثبيطاً من صاحبٍ له، لكنه لم يلتفت إليه، وهذا خبره مع صاحبه: «لما توفي رسول الله ﷺ، قلت لرجل من الأنصار: يا فلان! هلم فلنسأل أصحابَ النبي ﷺ؛ فإنهم اليوم كثير»، فقال: واعجباً لك يا ابن عباس! أترى الناس يحتاجون إليك، وفي الناس من أصحاب النبي ﷺ مَن ترى؟ فتركَ ذلك[1]، وأقبلتُ على المسألة، فإن كان ليبلغني الحديثُ عن الرجل فآتيه وهو قائل[2]، فأتوسد ردائي على بابه، فتسفي الريحُ على وجهي الترابَ، فيخرج فيراني، فيقول: يا ابن عم رسول الله! ما جاء بك؟ ألا أرسلتَ إلي فآتيك؟ فأقول: لا، أنا أحق أن آتيك. فأسأله عن الحديث.

قال: فبقي الرجلُ حتى رآني، وقد اجتمع الناسُ علَي، فقال: «كان هذا الفتى أعقل مني»[3].

كم هو رائع أن يتكرر هذا الموقف مع من يثبطنا للمضي قُدُماً فيما نقصد إليه من مشاريع علمية أو عملية، وأن لا يثنينا عن ذلك كلمة أو موقف.

---

(١) أي: ترك طلب العلم.

(٢) أي: نائم نومة القيلولة.

(٣) سنن الدارمي ح(٥٩٠).

لقد مارس أعداءُ الدين التثبيطَ مبكراً مع سيد الدعاة إلى الله ﷺ، فتأمل في هذه الأساليب التي حكاها الله عنهم في سورة النحل: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ١٠١] وقالوا مرةً: ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾[النحل: ١٠٣]، فأمر اللهُ تعالى نبيَّه ﷺ -في نفس السورة- أن يستمر في دعوته، ولا يلتفت إلى دعاويهم، قائلاً: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥]، فما أحرى المؤمن أن يجعل هذه الآيات منهجاً له، يدفعُ بها قالات المثبطين، ويئِدُ بها كلمات الكسالى والعاجزين.

إن التثبيط الذي يسمعه الإنسانُ، لا يقتصر على مشروعٍ علمي أو دعوي، أو تجاري، أو غير ذلك من المشاريع؛ **بل يمتد ليشمل أموراً، منها:**

١) التثبيط عن التوبة، التي هي وظيفة العمر، فكم تردد شابٌّ أسرف على نفسه بالمعاصي في قرار التوبة بسبب تثبيط يسمعه مِن صديق سوء، أو مِن وسوسة شيطانية، يقذف بها في قلبه، مضخِّماً ذنوبه، مستعظماً قبول توبته!

٢) تثبيط النفس عن الجهاد في ميادين الطاعة عامة، كالحج، والجهاد -إذا وجد سببه الشرعي-، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن الجهاد بالبيان: المشاركةُ في الكتابة في الميادين التي يحسنها الإنسان، فكما أنه يطالب الإنسان أن لا يستعجل في الكتابة حتى يملك شيئاً من ناصية البيان، وقدراً من العلم فيما يعانيه من الكتابة؛ فهو مطالَب -أيضاً- أن لا يتباطأ، بحيث يتأخر عن ذلك تأخراً ربما غُلّف بوَرَع بارد.

وأختم بهذا الموقف العملي، الذي وقع بين عالم وتلميذه، أما العالم فهو الشيخ طاهر الجزائري (ت: ١٣٣٨هـ) وأما التلميذ فهو الأستاذ محمد كُرد علي (ت: ١٣٧٢هـ) -رحمهما الله- حيث يقول في «مذكراته»[1]:

"ولقد نصحني أستاذي الشيخ طاهر الجزائري نصيحةً وَقَتْ أوقاتي من الضياع، وفِكري من البلبلة، وكان ذلك لما بدأتُ بتحرير جريدة (الشام) قال: إذا أحببتَ النجاح في هذا البلد؛ فلا تُلْقِ بأذنك لما يقال فيك من خير وشر، وارمِ ببصرك فقط إلى الهدف

---

(١) نقلاً عن كتاب «خواطر» (٢/ ١٢٦)، للدكتور محمد الحمد، وفقه الله.

الذي يعنيك الوصول إليه، ولا تلتفت ذات اليمين ولا ذات الشمال، وإذا وَضع لك واضع حجراً في طريقك فتنحَّ عنه، وعُدْ إلى سلوك محجتك.

تقبّلت هذه النصيحة، وما عبأت بعدها بسماع أقوال المثبطين، ولا بمصانعة المدّاحين، وعرفت -مع الزمن- أن أصواتَ أهلِ هذه الفئة تضيع في الهواء كالهباء، وأنهم كسالى لا يعملون، ويشُق عليهم أن يروا أحداً يعمل»ا.هـ.

ومع التأكيد على ما سبق؛ فإن العبدَ لا يصح أبداً أن يعتمد على ما في قلبه من قوة الداعي والباعث على العمل، بل لا بد أن يستحضر عبادة التوكل، والتبرؤ من حول النفس وقوَّتها[1]، مع بذل الأسباب التي تُعين على تحقيق النجاح في مشروعه، وسيرى ما يَسرُّه بعون الله.

(١) ينظر مقال سابق بعنوان: «الغبن في التوكل».

يا معشر القُرّاء في رمضان[1]

٢٢/ ٨/ ١٤٣٤هـ

يُقبل رمضان الذي ارتبط شرفُ زمانه بأشرف كتاب نزل من السماء، وتُقبِل معه النفوس المؤمنة التي أحبت ربها، وأحبت كتابه العظيم.

ومن صور هذا الإقبالِ: الرغبة في التأثر بالقرآن، وتحقيق أثره على النفس والجوارح، والإقبالُ على الأئمة ذوي الأصوات الندية، الذين يعينون -بحسن تلاوتهم- على تحقيق ذلك.

وإن الحفاوة بالقراء ذوي الأصوات الحسنة هَديٌ نبوي مبارك، كما قال ﷺ لأبي موسى: «لو رأيتَني وأنا أستمع لقراءتك البارحة، لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود»[2].

وبهذه المناسبة، فإنني أرقم هذه الأسطر لإخواني القُرّاء -الذين يجتمع الناس عندهم في صلاة التراويح وغيرها- حمَلَ عليها المحبةُ، والتواصي بالخير، ألخصها فيما يلي:

---

(١) مصطلح «القراء» في كلام السلف المتقدمين يقصد به طلاب العلم، وغلب استعماله في العصور المتأخرة على من عرفوا بقراءة القرآن وتجويده، وهم المعنيون بهذه المقالة.

(٢) البخاري ح(٥٠٤٨) ومسلم ح(٧٩٣)، واللفظ له.

أولاً: الصوت الحسنُ نعمة من الله تستحق الشكر، ولا ريب أن مِن أعظم صور شكرها تسخيرها في أداء القرآن بالأداء الحسن، الذي يحبب للناس سماعَ كلام ربهم، ويقوّي تأثيره فيهم، «والأصوات الحسنة نعمة من الله تعالى، وزيادة في الخلق ومِنّة، وأحق ما لبست هذه الحلة النفيسة والموهبة الكريمة كتاب الله؛ فنعم الله إذا صرفت في الطاعة فقد قضي بها حق النعمة»[1].

ثانياً: اجتماعُ الناس عند الإنسان، خاصة مع صغر السن؛ مظنة الفتنة، إلا لمن وفقّه الله، فجاهَدَ نفسه بالإخلاص، والحرصِ على التزين لله قبل التزين للخلق.

وقد كان السلف يخشون من قرع الأقدام خلفهم؛ خشية الافتتان، أو العُجب، والقارئ الموفق لا يرى أنه في معزل عن غبار هذه الأدواء، ولا تتوقف عنده عبادة المجاهدة، خاصة في مثل هذه الليالي التي يتتابع فيها قرعُ الأقدام مشياً إلى مسجده.

ثالثاً: إسماع القرآن، وتلاوته؛ ضربٌ من ضروب الدعوة إلى الله، وإحدى مهام الرسول ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي (٤/ ٥).

﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩١، ٩٢].

وكم قرأ الناسُ وسمعوا أن سبب هداية فلان من الناس آيةٌ تلاها القارئ الفلاني! وأن فلاناً تاب من المعصية الفلانية حينما سمع القارئ الفلاني، فهنيئاً لمن تاب الناس بسببه وهو لا يدري، فالله الله -أخي القارئ- بتحبير القرآن؛ وأنت تتعبد لله بذلك، قاصداً الدعوة به، مجاهداً لنفسك على حسن القصد.

رابعاً: أداء القرآن بالتجويد سنةٌ مأثورة عن رسول الله ﷺ، أخذها الناس بالأسانيد المتصلة، فأداء القراءة به سنةٌ لا ينبغي التقصير فيها، مع الحذر من التقعّر والتعمق الذي يُذهِب بهاءَ القراءة، ويشغل القارئ به عن المقصد الأكبر وهو تدبر المعاني وفهمها، قال ابن تيمية رحمه الله: «ولا يجعل همته فيما حجب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن: إما بالوسوسة في خروج حروفه، وترقيقها وتفخيمها وإمالتها، والنطق بالمد الطويل والقصير والمتوسط، وغير ذلك؛ فإن هذا حائل للقلوب، قاطع لها

عن فهم مراد الرب من كلامه»ا.هـ.[1]

خامساً: القارئ هو أولى الناس عنايةً بفهم ما يقرأ، خاصة مع تقادم سنوات إمامته، وقدرته على الرجوع لما خفي من المعاني.

إنني أعلم أن الوقت يضيق على القارئ في الشهر الكريم، وقد يذهب وقتٌ غير قليل على بعض القراء في مراجعة محفوظه، وهذا كلّه لا يُعفيه من الحرص على تلمس معاني الغريب، كأدنى مرحلة تليق بمقامه، وكتب الغريب متوفرة مبذولة، وإلا فالأولى والأكمل أن يقرأ تفسيراً مختصراً لما يريد قراءته في الصلاة، فإن في هذا فوائد كثيرة، أهمها:

- تدبر ما يقرأه، مما يؤثر إيجاباً على حضور قلبه، وتأثره بما يتلو.

- ثبات هذه المعاني -أو أكثرها- في نفسه؛ لأنه قرأ المعنى، ثم تلا الآيات مستحضراً لما وعى من المعاني.

- قوة تأثيرها على السامع الذي سيتأثر من القارئ الذي يُحسنُ الوقف والابتداء، ونحو ذلك من علوم القرآن المرتبطة بفهم القارئ.

سادساً: إسماعُ الناس لكتاب الله كاملاً من السنن المأثورة عن

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٠).

السلف الصالح -رضي الله عنهم- ولكن دون هذرمة أو عجلة، بل بأناة ودون إملال، بحيث تكون القراءة واضحة، يتحقق معها وضوح المتلوّ من الآيات.

ومن المحزن أنه في السنوات الأخيرة -وحرصاً على عدم تفلّت الناس عند بعضهم- حصل إخلال شديد، وتقصير عظيم في صلاة التراويح، وكأن السباق انتقل بين بعض الأئمة: أيهم ينتهي أولاً؟! وأصبحت الختمات تقسّم على سنوات! وبركعات قصيرة! بل ثبت عندي أن بعض الأئمة لا يزيد على ثلاثة أسطر في الركعة الواحدة!

ولا ريب أن هذا -إن كان الحامل عليه ما ذُكر- من قوادح الإخلاص!

والموفَّقُ -من الأئمة- من لم يلتفت لعدد من صلّى معه، بل يراعي السنة في ذلك، ولو لم يصل خلفَه إلا القليل، دون إخلال ولا إملال. والله الموفق.

❊❊❊

رمضان حياة

٢٩/ ٨/ ١٤٣٤هـ

الحياة كلمة جميلة، جُبلت النفوس على محبتها، «فكلنا يكره الموت»، لكن هذه الكلمة غالباً ما تنحصر عند كثيرين -عند سماعها- بحياة الأبدان ونعيمها، بيد أن نصوص القرآن والسنة، مع عنياتهما بمقومات حياة البدن؛ إلا أن عنايتهما بحياة القلب أعظم وأشد:

فقوتُ الروح أرواحُ المعاني ... وليس بأن طعمتَ ولا شربتا

ومن هنا تبوأت العبادات القلبية مكانتها العالية في الشريعة، فرُكن الإحسان، وأركان الإيمان الستة، كلها عبادات قلبية، فضلاً عن بقية أعمال القلوب التي لا يعلم تفاصيلها إلا الله.

وما مواسم الخير -ومن أجلّها رمضان- إلا نفحة من نفحات الرب الكريم؛ لتحيا القلوب بعد موتها، وتتعافى بعد مرضها، وتزداد حياة مع حياتها؛ لذا فإن الموفَّقين من عباد الله: من يبحثون بجِد عن جواب هذا السؤال: **كيف يكون «رمضان حياة»؟**

لقد ارتبط رمضان بالقرآن، والقرآن برمضان؛ فكانت الحياة!

حياة الدنيا كلها منذ نزلت أول خمس آيات من القرآن: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ [العلق: ١ - ٥]، وتتابع الوحي، حتى اكتملت به الهداية، وتمت به النعمة.

وكانت حياة القلوب: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢] فاهتدت بالنور، وخرجت من رحم الظلام، ودياجير الجهل؛ فكانت الحياة.

إذاً .. فرمضان لم ولن يكون حياً إلا بارتباط القلب بأصل حياته: وهو إقباله على ربه، وإخباته وخضوعه، ولن يتم هذا على الوجه الأكمل بدون التعلق بهذا القرآن: تلاوة وتدبراً.

ولك أن تتأمل في مشهد من مشاهد الحياة في هذا الشهر العظيم، الذي لخّصه الفقيه الجليل، والصاحب النبيل عبدالله ابن عباس ﷺ بقوله: «كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل عليه السلام يلقاه كل ليلة في رمضان حتى ينسلخ، يَعرِض عليه النبيُّ ﷺ القرآن، فإذا لقيه جبريل عليه السلام كان أجود بالخير من الريح المرسلة»[1].

---

(١) البخاري ح(١٩٠٢)، مسلم ح(١٨٠٣).

هكذا.. تلاقى أفضل رسولٍ مَلَكي مع أفضل رسولٍ بشري؛ ليتدارسوا هذا القرآن العظيم، فكانت الثمرات العظيمة، ولكلّ متأسٍ بهما نصيب من هذا الأثر، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

سيكون «رمضان حياة» حينما نستشعر معنى وقوفنا بين يدي ربنا في صلاة التراويح، ونحن نستمع لكلام الله، وبقلبٍ مفتوحٍ يتلقى رسالاتِه، ويشعر أنه هو المخاطب بكل آية تقرع أُذنه.

سيكون «رمضان حياة» حينما تمتد أيدينا لتساعد محتاجاً، وتغيث ملهوفاً، ونبادر بذلك قبل أن يَسأل المحتاج؛ حفظاً لماء وجهه مِن ذلّ السؤال، ومرارة مدّ اليد.

سيكون «رمضان حياة» حينما تَصِل ما انقطع من حبالٍ بينك وبين قرابتك؛ بكلمة طيبة، أو هدية ماسحة لغبار الهجر؛ لتحيي بذلك ما اندرس من معاني الصلة والمودة، وتغيض الشيطان الذي يفرح بالتحريش بين المؤمنين: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء: ٥٣].

سيكون «رمضان حياة» حينما تهتبل ساعات الصفاء، ولين القلب؛ لترفع يديك بالدعاء لنفسك، ولمن له حق عليك من والد ومعلم ومحسنٍ سبَق إليك إحسانُه، ولإخوانك المسلمين في كل مكان، خاصة مَنْ كان يعاني ما يعاني مِن ظلمٍ وجورٍ وتهجيرٍ وقتل،

فلذلك لذة يجدها الإنسان، ويذوق معها معنى من معاني حياة القلب، فهو يدعو ولا ينتظر جزاء ولا شكوراً، بل هو ساعٍ في تحقيق العبودية لله بالدعاء، وتحقيق ما دل عليه قوله ﷺ - في الحديث المتفق عليه: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم؛ كمثل الجسد، إذا اشتكى عضواً تداعى له سائرُ جسده بالسهر والحمى»[1].

سيكون «رمضان حياة» حينما نشعر بأن قلوبنا فقيرة إن لم تغتنِ بالقرآن، وأنها مريضة إن لم تستشفِ بالقرآن، وضالة إن لم تهتد بالقرآن، وميتة إن لم تحيَ بالقرآن.

وإن من الغبن البيِّن أن يكون رمضان وغيره من الأشهر سواء! حين لا يكون رمضان لنا حياة!

***

(١) البخاري ح(٦٠١١) واللفظ له، مسلم ح(٢٥٨٦).

التدبر بين تباشير العودة، وخطر الجرأة

٧/ ٩/ ١٤٣٤هـ

من المبشرات التي تبعث على الفأل -وما أكثرها- في هذه الأمة؛ عودتها إلى التمسك بكتاب ربها عودةً تضيف إلى الاهتمام بالحفظ العنايةَ بمقصدٍ من أعظم مقاصد التنـزيل، ألا وهو تدبر القرآن، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وليس المقام مقام حديثٍ عن فضل التدبر؛ فنصوص من الوحيين كثيرة ومتنوعة في الحض على التدبر، والنعي على المعرضين عنه، بل لو قال قائل: إن كل آية خُتمت بالأمر بالتفكر والتذكر والعقل والاعتبار -وهي بالمئات- هي من هذا الباب لكان مصيباً.

لكن المقصود التنبيه عليه هنا: أن هذه العودة المبشِّرة، ما لم تُضبط بضوابط تحوطها من الزلل؛ فإنه يُخشى أن يقع بسببها خللٌ كبير، وجرأةٌ على كتاب الله تعالى، كما تُلحظ بوادره من كتابات بعض الصحفيين الذين تكلّموا فأغربوا وأخطأوا، أو مِن بعض

الناشئة الذين دفعهم حب التدبر للجرأة بطرح ما لديهم، خاصة مع تيسر ذلك عبر مواقع التواصل الاجتماعي في «الفيسبوك» و«تويتر» وغيرها.

ولستُ هنا بصدد ذكر ضوابط ذلك، فالمقالة لا تحتمل هذا، لكن لعلي أشير إلى بعض المسائل المهمة التي يقصد منها التنبيه على رؤوس أقلام في هذا الموضوع الذي يحتمل ورقة مطولة، فأقول على وجه الاختصار:

أولاً: إن التدبر الصحيح فرعٌ عن فهم المعنى، إذ لا يمكن تصوّر تدبرٍ صحيح منطلقاً من فهم خاطئ.

فلو أراد أن يستنبط معنى من قوله تعالى: ﴿ **فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث** ﴾[الأعراف: ١٧٦] فلا بد أن يفهم معنى: (تَحْمِلْ عَلَيْهِ) فلو فَهم الحمل على أنه يَحمل على ظهره شيئاً فهذا خطأٌ في فهم المعنى، فمن الضروري أن يخطئ في التدبر المبني على هذا الفهم، وإن فهم معنى الحمل أنه: طرد الكلب أو الهجوم عليه، فهو فهم صحيح للمعنى، فيبقى النظر في تدبُّره واستنباطه.

ثانياً: آيات القرآن -من جهة وضوح معناها وخفائه- ليست على درجة واحدة، **فالقرآن من حيث وضوح معانيه وخفائها قسمان:**

القسم الأول: واضح المعاني؛ من حيث انتفاء الغرابة عن مفرداته، كالآيات التي تقرر معاني التوحيد، واليوم الآخر، أو التي تبين أصول الإيمان وأركان الإسلام، أو التي ترغّب في الأخلاق الفاضلة، وترهِّب من الأخلاق السيئة، ونحو ذلك، وقد يقع في أثناء ذلك مفردات غريبة تحتاج إلى بيان، والجُزْءَان الأخيران (عمّ وتبارك) نموذج واضح لذلك.

القسم الثاني: وهو الأقل، الآيات التي كثر فيها الغريب، وهي التي لا يمكن -لمن عرف خطورة القول على الله بغير علم- أن يتكلم بشيء مِن تدبرها دون فهم معناها؛ إذ التدبر فرع عن فهم المعنى.

ثالثاً: أحظّ الناس نصيباً من تدبر كلام الله تعالى هم أهل العلم[1] بالقرآن، فهماً لدلالاته -بأنواعها الثلاث- وعلماً بأحكام الشريعة، وعلماً بالسيرة النبوية -التي هي الترجمة العملية للقرآن-وهكذا: من كان بالله وأسمائه وصفاته، ومن كان بسنة رسول الله ﷺ وسيرته أعلم؛ كان أكثر نصيباً للإصابة والتوفيق للتدبر، وهم -على تفاوت مراتبهم-

---

(١) وهم العلماء وطلبة العلم.

يَمْتَحون[1] من معاني هذا الكتاب، ويغترفون من علومه على قدر ما آتاهم الله تعالى من العلم والفهم ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧].

وأما العامَّة: فلا يُنْكَرُ أن لبعضهم وقفات قد لا يَتفطن لها العلماء، لكن لا يعني هذا فتح الباب! بل يتوقف كلامهم عند الواضح البيّن المحكم.

وهم -أعني غير أهل العلم- يشاركون أهل العلم بعلم ما في القلب، الذي عناه الحسن البصري رحمه الله بقوله: العلم علمان: علمٌ في القلب؛ فذاك العلم النافع، وعلمٌ على اللسان؛ فتلك حجة الله على خلقه.

ومراده بعلم ما في القلب: الفهم الإيماني القلبي الذي ينتج عن تأملِ قارئ القرآن لما يمرُّ به من آيات كريمة، يعرف معانيها، ويفهم دلالاتها، بحيث لا يحتاج معها أن يراجع التفاسير، فيتوقف عندها متأملاً؛ ليُحرك بها قلبَه، ويعرض نفسه وعمله عليها، فإن كان من أهلها حمد الله، وإن لم يكن من أهلها حاسب نفسه واستعتب، ولعلي أذكر قصةً واقعية توضح المقصود.

وهي: أن رجلاً عامياً -في منطقتنا[2]- حينما سمع الإمامَ يقرأ

---

(١) المَتْحُ: الاستِقَاءُ. مقاييس اللغة (٥/ ٢٩٣).

(٢) وهي القصيم.

قول الله تعالى -في سورة الأحزاب-: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ۝٧ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧، ٨] قام فزعاً بعد الصلاة يقول لجماعة المسجد: يا جماعة! خافوا الله! هؤلاء خيرة الرسل سيُسألون عن صدقهم، فماذا نقول نحن؟! فبكى وأبكى رحمه الله.

رابعاً: من أحبّ أن يوفّق للتدبر السليم؛ فعليه أن يُدمن النظر في كتاب الله، وأن يعتني بقراءة كلام أهل العلم المحققين في هذا الباب، وعلى رأسهم أصحاب محمد ﷺ، وتلاميذهم؛ ففي تفاسيرهم إشارات بليغة، هي ثمرة تأمل، وصورة من صور التدبر.

ولهذا فإن مما يفرح به طالب العلم: تنوعُ عبارات السلف في تفسير الآية؛ لأنه يفتح باباً للتدبر، ويمنح الفِكر مزيداً من النظر في معاني الآيات، ومن أمثلة ذلك: قول الحسن البصري في تفسير: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨] قال: «هم الذين لا يؤذون الذر»! فإذا كانوا لا يؤذون الذر -على صغرها وحقارتها- أتراهم يؤذون بني آدم؟! فضلاً عن إخوانهم المسلمين.

ختاماً: ليست هذه دعوة لإغلاق باب التدبر، بل هي دعوة لما دعا الله إليه؛ من تدبر كتابه، والتفكر في معانيه، ولكن في ضوء القواعد المرعية، حتى لا يقع المحذور، وهو القول على الله بغير علم؛ لأن **الأمر بالشيء أمرٌ بتحصيل الوسائل التي تُعين على تحقيقه** وهي كثيرة، وقد كتب فيها بعضُ إخواننا من طلاب العلم[1]، والله الموفق.

❊❊❊

(١) ككتاب: (فن التدبر في القرآن الكريم) ، و (المراحل الثمان لطالب فهم القرآن) وكلاهما لأخينا الشيخ عصام بن صالح العويد.

أثر القرآن في يوم الفرقان

١٤/ ٩/ ١٤٣٤هـ

إذا ذُكر يومُ الفرقان لاحت ساحةُ القتال في غزوة بدر الكبرى، التي دارت أحداثُها يوم السابع عشر من رمضان من السنة الثانية من الهجرة.

وأحداث هذه الغزوة مسطورة في كتاب الله ودواوين السنة وكتب السِيَر.

لقد طُرقت الغزوة وأحداثها مِن عدة أوجه قديماً وحديثاً، ولكن هذه المقالة **أحاول أن أُلقي فيها الضوءَ على وجه آخر من أوجه هذه الغزوة.**

من المعلوم أن الصحابة -رضي الله عنهم- لم يكونوا مستعدين لتلك الغزوة، بل كان بعضُ أفرادها كارهاً للمواجهة العسكرية، ولكن لله من وراء ذلك حِكَم نصّت عليها آياتُ الأنفال في تصوير عجيب لذلك المشهد: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ

﴿أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٥ - ٨].

ومع كونهم غير مستعدين لها، بل وكون بعضهم كارهاً لذلك؛ إلا أن اللافت للنظر ما ظهر فيها من بطولات وتضحيات وثبات، فما السر؟

السرّ في ذلك - باختصار - هي: التربية النبوية بالقرآن، التي سبقت هذه الغزوة بسنوات طويلة، قاربت الخمس عشرة سنة! ثلاث عشرة منها في مكة، فكيف تمّ هذا؟

يجيب عن ذلك عدد من الصحابة -رضي الله عنهم- بتوصيف عجيب!

ومن ذلك:

ما رواه القاسم بن عوف الشيباني عن ابن عمر ﷺ بقوله: «لقد عشنا برهة من دهرنا، وإن أحدنا يُؤتَى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورةُ على محمدٍ ﷺ فيتعلم حلالها وحرامها، وما ينبغي أن يوقف عنده فيها كما تعلّمون أنتم القرآن»، ثم قال: «لقد رأيتُ رجالاً يُؤتَى أحدهم القرآن، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يدري ما آمْرُه

ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه! ينثره نثر الدَّقل»[1].

وقال جندب رضي الله عنه: «كنا غلمانا حزاورة[2] مع رسول الله ﷺ، فيعلمنا الإيمان قبل القرآن، ثم يعلمنا القرآن؛ فازددنا به إيماناً، وإنكم اليوم تعلمون القرآن قبل الإيمان! »[3].

وهاتان الكلمتان تُلخِّصان المنهج النبوي في تربية ذلك الجيل العظيم، وهو التربية الإيمانية بمفهومها الشامل للاعتقاد والسلوك، وليس للاعتقاد فحسب! كما بيّنَت الكلمتان سبباً رئيساً من أسباب الخلل الذي طرأ على الجيل الذي أدركه صغارُ الصحابة -رضي الله عنهم- وهو: التركيز على الكَمّ على حساب الكيف.

ومن المهم هنا -وغزوة بدر في أول العهد المدني- أن نتذكر أصول الموضوعات المطروقة في القرآن المكي، فإنها تنير الدرب للدعاة الذين يرومون تربية أجيالٍ تسيرُ على خطى الصحابة -رضي الله عنهم- وهي في الجملة تركّز على أصول ثلاثة:

١- تعظيم حق الله بتوحيده، ونفي كل نقيصة عنه في ربوبيته

---

(١) أخرجه ابن منده في الإيمان(١/ ٣٦٩)، وقال: إسناده صحيح على شرط مسلم، والحاكم في المستدرك (١/ ٩١).

(٢) حزاورة: جمع حزور. ويُقَال أيضا: حزور إذا قَارب أن يبلغ. غريب الحديث لابن قتيبة (٣/ ٧٥٨).

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبير (٣/ ١٧١).

وألوهيته وأسمائه وصفاته، وإجلال الرسول ﷺ، وبيان مكانته.

٢- التعلق باليوم الآخر، وما أعدّه الله للمؤمن والكافر.

٣- التربية على الأخلاق الحسنة، التي كانت تحمل رسالة مفادها: من لم يكن صاحب خُلق حسن؛ فلن يستجيب الناسُ لدعوته.

وقد تم تحقيق التربية بهذه الأصول العظام بأساليب كثيرة، من أعظمها:

قصص السابقين من الأنبياء وأتباعهم ومواقف خصومهم، بالإضافة إلى ما كان يراه الصحابة -رضي الله عنهم- في سيرة النبي ﷺ من ترجمة عملية، يستلهمون منها الدروس والعِبَر، في قدوة يرونها تطبّق القرآن تطبيقاً أوجزته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بكلمة عظيمة: «كان خُلُقه القرآن»[1].

إن هذه الأصول التي تضمنتها السور المكية، والسيرة العملية للنبي ﷺ في العهد المكي وأوائل العهد المدني؛ هي النبراس الذي ينبغي أن يضعه كلُّ من يريد أن يربي جيلاً على المنهاج النبوي -في

---

(١) رواه مسلم ح(٧٤٦).

بيته أو في مدرسته وحَلْقته-، فليَسِر على هذا الهدي القرآني النبوي، الذي يرتكز على الأصل الذي لخّصه الصحابة: **الإيمان قبل القرآن**.

وإذا تأملتَ في مشاهد غزوة بدر، وما وقع فيها من تضحيات وبطولات وثبات؛ أدركتَ أثر التربية على هذا المنهاج، والمقالة لا تحتمل شرح ذلك وبيان ارتباطه بما نحن بصدد الحديث عنه، ولعل الله تعالى أن ييسر مقالةً قادمة لبيان ذلك.

❊❊❊

معتكفون ربانيون

٢١/ ٩/ ١٤٣٤هـ

كنتُ في صباي أسمع عن الاعتكاف، وأقرأ آية الاعتكاف في سورة البقرة، ولا أراه في محيط بلدتي الصغيرة! فكان أشبه بالمعلومة النظرية.

ولم يمض على ذلك سوى سنوات معدودة حتى رأى الناسُ المعتكفين -كباراً وصغاراً- يعمرون بيوت الله تعالى في الجوامع، وفي المساجد الصغيرة، حتى ظهرت هذه السنة -التي أجمع عليها المسلمون- ولله الحمد والمنة.

بيْد أن المتابع لتطبيق هذه الشعيرة العظيمة؛ يلحظ أنه دخلها بعضُ ما كدّر صفاءها، وأذهب بعضَ رونقها ومقصدَها الذي شرعت من أجله؛ وهو الانقطاع عن الخلائق، والخلوة بالله، والإقبال عليه.

ولكي يكون الاعتكاف ربانياً على الجادة؛ فلا بد أن يكون موافقاً للشريعة ظاهراً وباطناً، وذلك بأن يراعي المعتكفُ أموراً، من أهمها ما يلي:

أولاً: الإخلاص لله تعالى عندما ينوي الاعتكاف، فلا يقصد -

حين يخرج من بيته ويتفرغ من أشغاله- إلا وجه الله تعالى، والأُنْسَ بالخلوة به، والرغبةَ في مناجاته، وتربيةَ النفس على مراقبته، فاستحضار هذا المقصد يزهّد في الرغبة في الحديث مع فلان وفلان، وإضاعة الوقت في غير مقصود الاعتكاف الذي شرع من أجله، ويقوّي التلذذ بهذه العبادة.

ثانياً: مراعاة الهدي النبوي في الاعتكاف، من حيث الوقت - بدءاً وانتهاءً- وأدباً وتعاملاً، وهذا لا يتأتى إلا بمعرفة فقه الاعتكاف وأدبه، وهو مبثوث في كلام أهل العلم في باب الاعتكاف، فضلاً عن المصنفات المستقلة فيه.

ثالثاً: زاد المعتكف هي العبادات الخاصة: من صلاة، وقراءة قرآن، وذكر، ومناجاة، ومحاسبة للنفس، ولهج بالدعاء والثناء على مستحق الحمد والثناء.

وعليه؛ فوقت الاعتكاف ليس وقتاً مفضلاً للانشغال بالأعمال المتعدي نفعها -من طلب العلم، وقضاء حوائج الناس- فهذا زمان الانكفاء على النفس، وتصفيتها، وتهذيبها.

ومن تحقق أن الناس بحاجته، ولا يستغنون عنه؛ فلعل انشغاله بقضاء حوائجهم أحسن من اعتكافه.

رابعاً: حريٌّ بالمعتكف -وقد حبس نفسه في بيت مولاه- أن يتذكر ذنوبه التي سلفت بينه وبين سيده وخالقه ورازقه، فكم عصاه، وقصّر في جانبه؛ فستره ولم يفضحه بمعصيته بين الخلائق! وكم أخطأ ولم يأخذه! وكم تمادى ولم يعاجله! فإن تذكر هذه المعاني يحمل النفس على الانكسار والحياء من الله، وتلك -لعمر الله- من أحسن حالات العبد بين يدي سيده ومولاه.

كما أن تذكرها يبعث على الجدّ في العمل، وتجديد التوبة، وقطْعِ علائق العجب بالنفس، خاصةً حين يتذكر أن هناك عُبّاداً أتقى منه، وأكثر إخلاصاً، وأقلّ تقصيراً منه، بل يوقن أنه لولا توفيق الله وفضلُه لما تيسر له هذا الاعتكاف.

خامساً: التوازن مع النفس مطلب مهم؛ ليحقق الاعتكافُ مقصودَه، فبعض المعتكفين يُرْهق نفسه أول الليالي إرهاقاً لم يعتده طيلة السنة، فيقلل النوم عن المعتاد، أو يجوّع نفسه جوعاً لم تألفه نفسه، حتى إذا مضت ليلتان أو ثلاث فتَرَ وضعف!

وكلُّ إنسان يعرف نفسه، وما الذي يصلحها، والموفق من تدرّج معها حتى يحقق مراد الله من الاعتكاف.

سادساً: الاعتكاف -باتفاق أهل العلم- سنة، فلا يجوز أن يترتب على تطبيق هذه السنة التفريطُ في واجب، أو التقصير في حق ذي حق، كالوالدين والزوجة والأولاد، فلا يليق بالمسلم العاقل أن يقدِّم سُنة على واجب.

سابعاً: إذا وُفِّقت -أيها المعتكف- للاعتكاف، وعشت معه أحوالاً قلبية، ولحظاتٍ فتح الله بها عليك، ودمعات جرت خشية لله، وشوقاً إلى لقائه، وغير ذلك من الأحوال الإيمانية؛ فاكتمها، واحذر من التحدث بها، فإن «أعظم النعم: الإقبال على الله، والتعبد له، والانقطاع إليه، والتبتل إليه، ولكل نعمة حاسدٌ على قدرها -دقّت أو جلّت- ولا نعمة أعظم من هذه النعمة، فأنفُسُ الحاسدين المنقطعين متعلقةٌ بها، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد، وأن لا يقصد إظهارها له، وقد قال يعقوب ليوسف: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [يوسف: ٥].

وكم من صاحب قلب، وجمعيّةٍ وحالٍ مع الله، قد تحدّث بها،

وأخبر بها؛ فسلبه إياها الأغيار، فأصبح يقلب كفيه، ولهذا يوصي الشيوخ بحفظ السر مع الله، وأن لا يُطلِعوا عليه أحداً، ويتكتمون به غاية التكتم.

والقومُ[1] أعظمُ شيء كتماناً لأحوالهم مع الله، وما وهب الله لهم من محبته والأنس به، وجمعية القلب عليه، ولا سيما للمبتدىء والسالك، فإذا تمكّن أحدهم وقوي وثبتت أصول تلك الشجرة الطيبة -التي أصلها ثابت وفرعها في السماء- في قلبه، بحيث لا يخشى عليه من العواصف، فإنه إذا أبدى حاله وشأنه مع الله؛ ليُقتدى به ويؤتم به؛ لم يبال، وهذا باب عظيم النفع، وإنما يعرفه أهله»[2].

ومن وراء كتمان العمل مصلحة أكبر: وهي الإخلاص لله تعالى، وتربية القلب على ذلك.

ثامناً: إياك والعُجب:

والعُجْبَ فاحْذَرْهُ إنَّ العُجْبَ مُجْتَرِفٌ ... أعْمالَ صاحِبِهِ في سَيْلِهِ العَرِمِ

وتذكّر أن كلّ لحظة قضيتها في هذه العبادة -وغيرها- وكلّ عملٍ صالح توفق إليه، إنما هو محض فضل الله تعالى عليك، فضع

---

(١) يعني: السلف الصالح.

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ٨٤٧).

هذا نصب عينيك، ولا يغب عن بالك، وتذكر دوماً أمثال هذه الآيات:

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ٨٣].

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٢١]، وغيرها كثير.

العيد بين عبوديتين

٢٨/ ٩/ ١٤٣٤هـ

كيف أفرح بالعيد وإخواننا يُقتلون في بورما وسوريا؟! ونساء المسلمين يُغتصبن من قِبل الكفرة والمجرمين؟! كيف تريدني أن أفرح بالعيد والقدس سليبة؟!

أسئلة نسمعها -أحياناً- من أفاضلَ امتلأت قلوبهم حرقةً وحزناً على واقع الأمة، وهم يستقبلون هذا العيد وغيرَه من الأعياد التي قلّ أن تخلوا الأمة فيها من جراح، فهل في كلامهم خطأ؟

إن مما لا شك فيه أن هذه الأسئلة نابعة من قلوب حيّة، هي مأجورة على هذا الشعور، لكن **ينبغي للمؤمن أن يعلم أنه -في أحواله كلها- يعيش العبودية لمولاه**، فله عبودية في السراء كما له عبودية في الضراء، وله عبودية في الفرح كما له عبودية في الحزن، ومثل ذلك في الرضى والغضب، فلا يطغى جانبٌ على جانب.

ومن تأمل في سيرة النبي ﷺ سَهُلَ عليه تصوّر هذا المعنى، فهو العابد في محراب التبتل، وهو الأب الرحيم الذي تدمع عينُه إذا أصاب أولادَه وأحفادَه ما يكدِّر، وهو -أيضاً- الذي يفرح بتقبيل أولاده وأحفاده، وهو الزوج الذي يعيش حياته الزوجية كأي زوج

له حقوق وعليه واجبات، وهو الذي يعيش عبودية الجهاد في ميادين القتال، وهو الذي يعيش عبودية البلاغ عن الله ورسالاته في مقام الفتوى والقضاء، وهلم جراً.

وفيما يخص العيد، فلقد كان ﷺ يعيش عبودية الفرح بالعيد، فرحاً مقترنا بالشكر على إكمال العدة، والشكر على الهداية لهذا الدين الذي حُرِم منه فئامٌ لا يعلمهم إلا الله.

ويُقِر أزواجَه -في يوم العيد- على سماع شيء من اللهو المباح، كما قالت عائشة ﵂: دخل عليّ أبو بكر، وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنيان بما تقاولت الأنصار يوم بعاث، قالت: وليستا بمغنيتين، فقال أبو بكر: أمزامير الشيطان في بيت رسول الله ﷺ؟! -وذلك في يوم عيد- فقال رسول الله ﷺ: «**يا أبا بكر، إن لكل قوم عيدا وهذا عيدنا**»[1]، وقد بوّب البخاري على هذا الحديث بقوله: «باب سنة العيدين لأهل الإسلام»، وبوّب عليه النووي بقوله: «باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد».

فعَلَ هذا ﷺ وهو الذي لم تزل المصائبُ والجراح تتجدد عليه مُذ شُرِع العيد في المدينة، فصَدْعُ المصاب في «غزوة أحد» بقي

---

(١) البخاري ح(٩٥٢)، مسلم ح(٢٠٩٨).

ملازماً له طيلة حياته، فضلاً عما تجدد له من مصائب في مقتل جماعة من أصحابه، أو فَقْد بعض أحبابه، وعلى رأسهم حمزة وجعفر وابنه إبراهيم، رضي الله عنهم أجمعين.

والمؤمن ينبغي له الجمع بين العبوديتين في العيد: عبودية الحزن لمصاب إخوانه، وعبودية الفرح بالعيد، الذي يستشعر معه الفرح بإكمال العدة، ونعمة الهداية لهذا الدين -كما سبق- لكن بحيث لا تطغى عبوديةُ الحزن؛ لأن الأصل هنا: هو ظهور عبودية الفرح بالعيد.

وهذا المعنى يبيّن أن ما نقرؤه عن بعض العُبّاد -الذين تُنقَل أقوالهم في بعض كتب الوعظ- من كلمات مؤداها: عدم الفرح بالعيد، بل بعضها يُفهم منها: الأمر بالعيش بحزن! غلطٌ لا يوافَق عليه قائله، مع الاعتذار له؛ كقول بعضهم -لما رأى قوماً يضحكون في يوم عيد-: إن كان هؤلاء تُقبِّل منهم صيامهم فما هذا فعل الشاكرين، وإن كان لم يُتقبل منهم صيامهم فما هذا فعل الخائفين!

وفي هذا نظر كبير، فإذا لم يضحك الإنسانُ يوم العيد فمتى يضحك؟!

ولا يصح الاعتذار بأن هذا العابد يحتمل أنه رأى قوماً من أهل

المعاصي، فإن قوله: (فما هذا فعل الشاكرين) يدل على أن هيئتهم تدل على أنهم من أهل الخير والصلاح.

والمقصود: أن الذي ينبغي إشاعته في الناس ونشره وربطهم به، هو منهجُ وهديُ مَن أمرنا الله تعالى بالتأسي به مطلقاً، في قوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، وأن السبيل إلى ذلك هو معرفة سنته ﷺ في الأحوال كلها، حلوها ومرها.

أما المواقف والأقوال التي تُروى عن بعض الفضلاء من العبّاد والصالحين؛ فيجب أن تُعرض على الميزان السابق، وهو سنة النبي ﷺ، فما وافقها قُبل، وإلا رُدَّ واعتذر عن صاحبه.

❊❊❊

بشائر النصر (٣/١)

١٢/ ١٠/ ١٤٣٤هـ

في ظل الأحداث التي تمر بها الأمة؛ تبرز لغةُ اليأس عند بعض أفرادها حيناً، ولغة الحزن حيناً آخر.

ولا ريب أن الحزن العارض لا تنفك عنه النفوس، كيف وقد مرّ بسيد المرسلين، المؤيَّد بالوحي من رب العالمين ﷻ!

لكن المتأمل في الآيات التي تدور حول هذا المعنى؛ يجد سرعةً ظاهرةً في دفع هذه الخواطر والمشاعر بأساليب متنوعة، وليس ذِكر الآيات في هذا المعنى مراداً لنا في هذه الأسطر، بل المراد هو الاستفادة من المنهج القرآني، والمنهج النبوي في بثّ روح الفأل، ودفع غوائلِ اليأس، ومشاعرِ الحزن، التي إذا سيطرت على الإنسان أقعدته، ولم تدفعه للعمل الإيجابي المثمر.

إن الأمة -مع ما تعيشه من آلام- إلا أن في واقعها بشائر كثيرة، مقارنة بما كانت عليه في القرن الماضي.

وهذه المبشرات كنتُ أرصدها منذ أكثر من عَقد من الزمان، ولا يزيدها الوقت إلا كثرة، وسأسوق بعضَها؛ علّها تنعش النفوس

المحطّمة، وتدفع بالنفوس المتفائلة لمزيد من العمل على نصرة الإسلام. فمن هذه المبشرات:

أولاً: السنن الإلهية:

فهي لا تتبدل ولا تتحول، قال سبحانه: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر: ٤٣]، ولا ريب أن عِلمَ السنن الإلهية علمٌ شريف، عظيم الأثر والنفع لمن أحسن الاستفادة منه، وكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ مليئان بتقرير كثير من السنن، وقد أُلّفت في هذا الموضوع كتبٌ ودراسات علمية منهجية.

ونحن نملك بحمد الله -لموضوعنا هذا- رصيداً من المبشرات التي تبعث على الأمل والتفاؤل، وإن كانت هذه السنن لا تحابي أحداً؛ إذْ إن من خصائصها أنها تجري على المسلم والكافر.

فمن هذه السنن التي تبشِّر بأن النصر للإسلام:

١- إهلاك المترَفين البطرين: الذين كفروا نعمة الله، ولم يؤدوا شكرها، قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ

﴿ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص: ٥٨]، وقال عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم: ٢٨]...الآيات، وما قصة سبأ عنا ببعيد.

وأنت إذا نظرتَ إلى كثيرٍ من أمم الأرض -خاصة منها الغربية- وجدت هذا منطبقاً تماماً عليها، لكن قد تتأخر العقوبة لحكمةٍ لا نعلمها، بل ربما تتأخر العقوبة لتمضي سنةٌ أخرى أيضاً وهي سنة الاستدراج: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وهي التي يشير إليها حديث أبي موسى ﷺ -في البخاري- أن النبي ﷺ قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ ﷺ قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢][1]».

٢- ومن هذه السنن: إهلاك الظالمين: يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ

---

(١) البخاري ح(٤٦٨٦).

﴿أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾[يونس: ١٣]، ويقول جل وعلا: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾[الأنبياء: ١١] والآيات في هذا المعنى كثيرة، وهي تبشر المسلم أن أَمَدَ الظالمين لن يطول، وما أكثر صور الظلم في عصرنا هذا! فكيف إذا جُمع مع الظلم الكفر بالله!

إن ما تمارسه بعضُ الدول العظمى من ظلم عظيم، وتسلط مقيت على الشعوب المستضعفة -خاصة الإسلامية منها- باسم مكافحة الإرهاب، وباسم تطويق أسلحة الدمار الشامل، فيموت بسبب هذه الدعاوى ملايين الأبرياء جوعاً، وتُقصف عشرات المدن والقرى المدنية ظلماً؛ لا ينطلي على السذَّج من الناس، فكيف بعقلائهم! أما ربنا عز وجل فيقول: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾[إبراهيم: ٤٢].

والمؤمن يترقب أن تَحِق على هؤلاء الظلمة وأمثالهم سنةٌ من السنن الإلهية الثابتة وهي:

أن الله لا يصلح عمل المفسدين، وهذه السنة الإلهية جاءت في معرض رد موسى ﷺ على السحرة بقوله: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[يونس: ٨١].

ولعلنا نقرأ شيئاً من واقع الغرب من خلال ما سطّره بعض عقلائهم، الذين صرخوا محذّرين من قرب سقوط حضارتهم إذا استمر الأمر كما هو؛ من تفشٍ للفساد، وانتشار للرذيلة، وإليك بعض اعترافاتهم:

- يقول قائد السلاح الجوي الأمريكي المتقاعد (هاميلتون هوز): «ظواهر كثيرة لا نستطيع حصرها -فضلاً عن مناقشتها- كلها تدل على أن المجتمع الأمريكي يسير نحو الهاوية».

ويقول أيضاً: «لست الوحيد في الميدان الذي يقول: إن الولايات المتحدة تمر بوضع محرج وخطير في تاريخها، وأجد نفسي مضطراً لأن أردد ما قاله آرثر كروك: «يساورني خوف شديد من أن فترة سيادة الولايات المتحدة وبروزها كقوة عظمى ووحيدة في العالم ستكون من أقصر الفترات في التاريخ»[1].

ويقول آخر: «أنا لا أعتقد أن الخطر الأكبر الذي يهدد مستقبلنا يتمثل في القنابل النووية، أو الصواريخ الموجهة آلياً، ولا أعتقد أن نهاية حضارتنا ستكون بهذه الطريقة، إن الحضارة الأمريكية

---

(١) في كتابه (السقوط التراجيدي ...أمريكا عام ٢٠٢٠م) الذي صدر في آخر عام ١٩٩٢م.

ستزول عندما نكون عديمي الاهتمام وغير مبالين، وعندما تموت العزيمة على إبقاء الشرف والأخلاق في قلوب الرجال»ا.هـ[1].

---

(١) نقلاً عن (تثبيت قلوب المؤمنين) للعفاني (٢٣٩-٢٤٠).

وهنا أنبّه إلى ثلاثة أمور:

١. أن سقوط الدول أمامه زمنٌ الله أعلم به، لكنه بمقياس أعمار الحضارات والدول غير طويل -إن شاء الله- فإن عشرين سنة أو حتى خمسين سنة، ليست شيئاً يُذكر في حساب تاريخ الحضارات، ولهذا تعتبر الشيوعية من أقصر المذاهب التي عاشت على هذه الأرض، رغم أنها بقيت ٧٠ سبعين سنة.

٢. أن الفساد المشار إليه، إذا سرى في بلدٍ أهلها مسلمون؛ فإن سنة الله تمضي عليهم أيضاً، ولذا فإن مجرد الانتساب إلى الإسلام لا يكفي في دفع هذه السنن، فإنها ستمضي على كل من تحققت فيها أسبابها، والله لا يصلح عمل المفسدين، مسلمين كانوا أم كافرين.

٣. أن من الإنصاف أن يقال: لا يعني هذا أن كل غربي أو أمريكي فهو موغل في الفساد، ومتلبس بأنواعه المختلفة، كلا... بل فيهم من يمقت ذلك بعقله، ومن المعلوم أن هذه الصناعات المتنوعة المتقدمة لا يمكن أن تقوم على أيدي أناس كلهُم غارقون في الفساد إلى آذانهم!

بشائر النصر (٣/٢)

١٨/ ١٠/ ١٤٣٤هـ

أشرتُ في الجزء الأول من هذه المقالة إلى أن بثّ الفألِ والبشائر منهج قرآني ونبوي، وأن المبشرات في عصرنا كثيرة جداً، وكانت البداية بالمبشرات التي يقرؤها المسلم من خلال السنن الإلهية، ونواصل في هذا الجزء بقية المبشرات:

ثانياً: مبشرات من أرض الواقع:

وقبل أن أذكر هذه المبشرات؛ أجد أنه من المهم أن نستصحب - في أذهاننا- الحالة التي كانت تعيشها الأمة الإسلامية في القرن الماضي، بل في القرنين الماضيين، والتي بلغت فيهما أحوال المسلمين من الضعف العقدي، والعلمي، والسياسي، والعسكري، والاقتصادي، والاجتماعي؛ مبلغاً لم يُعرف في زمن مضى، كما يقول أبو الحسن الندوي رحمه الله [١]، وكما يُثبته بالأمثلة الواقعية: د.علي الزهراني في أطروحته القيمة: «الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين وأثرهما في حياة الأمة»[٢]، وهي رسالة قيّمة.

---

(١) ينظر كتابه القيم: (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)؟.

(٢) ينظر: (١/ ٤٣، ١١)، وينظر الفصل الأول من الباب الثالث (٢/ ١١٥ـ ٢٠٧)، فهو مهم.

إن من المؤكد أن سقوط الخلافة الإسلامية كان مؤشراً قوياً على نهاية الضعف الذي أصاب هذه الأمة، ومع نهاية هذا الضعف فإن من المحزن أن بعض أبناء الأمة اشتغل في نجارة نَعشِها حتى سقطت! **وقد صاحَب سقوطَها مؤشراتٌ قوية على حدوثه، منها:**

- دخول الاستعمار بلاد الإسلام.

- واستبدال الشريعة الإسلامية بالقوانين.

- ونزع المرأة المسلمة حجابها ودوسه بقدميها في بعض البلاد.

- وصارت الحركة العلمية في ذينك القرنين ضعيفة جداً؛ بدليل: قلة المؤلفات الجيدة في هذه الفترة، ولم تكن دروسُ العلم في المساجد بذاك الحضور القوي المؤثر في الساحة، حتى صار بعض المسلمين يدرس الشريعة واللغة العربية في بلاد الغرب!

أشرتُ إشارة سريعة جداً لواقع الأمة في القرنين الماضيين؛ ليتضح من خلالها وجه كون ما سأذكره من بشائر مفرحة، وليتبين أن الآمال تولَد من رحم الآلام، وأن طلوعَ الفجر لا بد أن يُسبَق بظلمة شديدة.

١) انتشار الحجاب: ليس في بلاد الإسلام فحسب؛ بل في بلاد الكفر، التي لم يعد مستغرباً أن تُرى فيها المرأةُ المسلمةُ المتحجبةُ،

وكأنها تَرُد عليهم بلسان حالها فتقول: أنتم من زينتم لنسائنا نزع الحجاب؟! فهاهو الحجاب يُلْبَسُ في بلادكم!

٢) إقبال الشباب المسلم على التدين بمعناه العام: فكم هم الشباب -منذ ثلاثة عقود- الذين يخرج أحدُهم من نعيم الدنيا وزهرتها وكلِّ مغرياتها؛ ليعيش حياة الجهاد، وما فيها من عنت ومشقة، يطلب الموت في مظانه، دفاعاً عن هذا الدين؟ ومن رأى الحرمين الشريفين -خاصة في رمضان- رأى ما يبهج النفس، وإقبالُ فئام من الناس على سنّة الاعتكاف من دلائل ذلك أيضًا.

هذه بعض المظاهر التي عرفتها الأمةُ مع بداية هذا القرن، وإن شئتَ فقل: مظاهر كانت غائبة في القرنين الماضيين.

ثالثاً: المبشرات العقدية:

١) ففي الوقت الذي كانت كثير من العقائد الفاسدة منتشرة ومُطبِقة في العالم الإسلامي كالتصوف، نجد اليوم -بحمد الله تعالى- انتشاراً واسعاً للعقيدة السلفية الصحيحة التي تمثل معتقد أهل السنة والجماعة، بل إننا نسمع كل يوم إقبالاً من بعض أهل البدع -كالرافضة والإسماعيلية والصوفية- على اعتناق مذهب أهل السنة، وهاهي كتب وأشرطة أهل السنة تنتشر في أصقاع الأرض، وتُترجم إلى عدة لغات، وتُنشر عبر الإنترنت.

٢) سقوط بعض الدعوات المخالفة للإسلام في أسسها، وإعلان إفلاسها، كسقوط الشيوعية، وانحسار مَد القومية العربية، بل صار بعض دعاة القومية بالأمس يتراجعون اليوم؛ ليكتبوا كتابات إسلامية -وهذا نوع من النصر للإسلام.

وهاهم بعض من كانوا يعيشون العلَمنة يعودون لينتقُدُوها أشدَّ من نقد بعض من لم يَسِر في طريقها؛ ليساهموا مع غيرهم في كشف أقنعة هؤلاء المنافقين، بل هذه كلمات بعض أساطين الفكر الغربي النصراني -بل حتى اليهودي- في الدفاع عن الإسلام.

رابعاً: المبشرات العلمية:

١) يظهر في هذا الخير العظيم المتمثل في انتشار حلق تحفيظ القرآن وتدبره، والعناية بالسنة: حفظاً ونشراً وشرحاً، وانتشار دروس العلم المتنوعة.

لقد أتى على الناس زمانٌ ليس بالبعيد يقال: إن في المدينة الفلانية حافظاً لكتاب الله، وفي المدينة الفلانية درسٌ علمي، أما اليوم فلا تَكاد تخلو قرية من حافظ، ولا تكاد تخلو مدينة صغيرة من درسٍ علمي.

بل تَعدى الأمرُ إلى حلقات النساء، فانتشرت دورُ القرآن الكريم، وصرتَ تسمع عن عشرات الحافظات، بل صارت بعض النساء يحضرن دروس العلماء، ناهيك عن عناية الكثير منهن بأشرطة الدروس العلمية.

ومن لطيف ما أذكر في هذا -من المواقف التي أجدها ذات دلالة كبيرة في هذا السياق- أنني أذكر أنني اختبرت طفلاً عمره تسع سنوات يحفظ القرآن، والجمع بين الصحيحين، وهو من (بورما)، وليس عربياً!

٢) العناية العظيمة سواءً بكتب السلف: طباعةً، وتحقيقاً، وتدريساً، وشرحاً، واختصاراً، أو تأليفُ الكتب المعاصرة التي تقرِّب فهم كتبِ السابقين، أو الدراسات العلمية التي تعالج مشاكل الأمة، وغيرها من مظاهر العناية بالنواحي العلمية، وهذا كله -بعد توفيق الله- نتيجة بروز عدد من الكفاءات العلمية المتخصصة، في جميع علوم الشريعة.

٢٥/ ١٠/ ١٤٣٤هـ

سبق أن أشرت في الجزأين السابقين - من هذا المقال - إلى جملة من المبشرات، وهي: مبشرات من السنن الإلهية، ومبشرات من الواقع، ومبشرات عقدية وعلمية، وأختم في هذا الجزء بذكر مبشرات أخرى:

خامساً: المبشرات الدعوية، وهي كثيرة، منها:

١) الإقبال الكبير على الإسلام:

فبحسب التقرير العلمي الدقيق الذي نشره موقعُ الألوكة[1]، عن مستقبل السكان المسلمين في العالم توقعات بين عامي (٢٠١٠ و ٢٠٣٠) فإني أقتطع منه هذه الخلاصة:

من المتوقع أن يَزداد عدد السكان المسلمين في العالم بمعدل ٣٥٪ في العشرين سنة القادمة، مرتفعًا بذلك من ١,٦ مليار مسلم في عام ٢٠١٠ إلى ٢,٢ مليار مسلم بحلول عام ٢٠٣٠م.

عالميًّا، من المتوقع أن يزداد تَعداد السكان المسلمين ضِعف

(١) ينظر: http://www.alukah.net/translations/١٠٣٣٨/٤٧٠٠٠/.

معدَّل نمو السكان غير المسلمين في العقدين القادمين - بواقع معدل سنوي متوسط مقداره ١,٥٪ للمسلمين، مقارنة بمعدل ٠,٧٪ لغير المسلمين، وإذا ما استمرَّت الاتجاهات الحاليَّة؛ فسوف يمثِّل المسلمون ٢٦,٤٪ من إجمالي عدد السكان المتوقع بنحو ٨,٣ مليار شخص في عام ٢٠٣٠، مرتفعًا بذلك عن النسبة المقدَّرة عام ٢٠١٠ البالغة ٢٣,٤٪ من تَعداد سكان العالم المقدَّر بنحو ٦,٩ مليار شخص.

٢) أما على مستوى إقبال المسلمين المنحرفين فكرياً أو سلوكياً، وعودة كثير منهم إلى طريق النور؛ فحدِّث عن هذا ولا حرج!

أما مشاهير الفن والرياضة فقد طبقتْ أخبارُ توبتهم الآفاقَ، بل أصبح بعضُهم من الدعاة إلى الله، فضلاً عن عشرات الآلاف من الشباب والشابات الذين لم يشتهروا، فلله الحمد والمنة.

سادساً: المبشرات الاقتصادية، منها:

١) تحقيق بعض الدول الإسلامية تقدماً جيداً في هذا المجال، كإندونيسيا وماليزيا، اللتان هما من النمور الآسيوية السبعة، مما أزعج الغرب -وخاصة اليهود- الذين قاموا بحركتهم المشهورة عام ٩٨م، تمثلت بسحب أرصدة ضخمة من البنوك، كانت أحد أهم أسباب الأزمة الاقتصادية[1].

٢) أن بعض الدول الغربية والشرقية، بدأت بالعودة إلى النظم

---

(١) ينظر: مجلة البيان، عدد (١٢٦)، مقال بعنوان: (افتراس النمور الآسيوية) لعامر عبدالمنعم.

الإسلامية في المعاملات المصرفية، والبعد عن الربا الذي غرقت بسببه في مستنقع الديون الضخمة.

٣) ما نراه من تسابق نحو (أسلمة) المصارف لبعض فروعها قبولاً منها بالأمر الواقع، الذي تفرضه الشريحة الإسلامية العريضة التي ترفض الربا، وغيره من الطرق المحرمة.

سابعاً: المبشرات العسكرية، منها:

١) في الوقت الذي كانت فيه الأمة لا تعرف إلا استيراد السلاح من أعدائها، صارت بعض الدول الإسلامية اليوم -بحمد الله- تُصنِّعُ السلاح الخفيف والثقيل، ومن ذلك: الصواريخ التي صنّعها المجاهدون الأبطال في فلسطين، وعلى رغم بساطتها إذا ما قورنت بقوة دولة اليهود العسكرية؛ إلا أن أثرها المعنوي في نفوس اليهود عظيم.

٢) ومن السلاح الخفيف والثقيل إلى الصواريخ بعيدة المدى، وأخيراً القنبلة النووية في باكستان التي أقضّت مضاجع الغرب، رغم أن جارتها (الهند) هي التي بدأت التجارب النووية، إلا أنهم يعرفون الفرق بين عُبّاد البقر وعِباد الرحمن.

وقد علق سفير أمريكي سابق في «الهند» على هذا الحدث بقوله: «نحن الآن نواجه قنبلة نووية إسلامية...وهذه القنبلة يمكن أن توضع الآن على رأس صاروخ، يمكن أن يعني فناء إسرائيل»، وما أجمل ما ردّ به رئيس الوفد الباكستاني الذي ذهب إلى أمريكا ليوضح وجهة نظر باكستان في تجاربها الأخيرة، حيث قال: «إن

القنابل لا دين لها، ولم يتعود العالم أن ينْسِبَ القنابل إلى أي دين حتى الآن، فلماذا تسمى قنبلة باكستان (إسلامية)؟ ».[1]

هذه جملةٌ من المبشرات ذكرتها باختصار، لعلها تكون سبباً في وأد لغة اليأس، واختفاء نبرة الحزن الدائمة، وأن تكون هذه المبشرات شاحذة للهمم، والسير على المنهج النبوي في الفأل الذي يدفع إلى العمل على إصلاح النفوس والمجتمعات، حتى يأتي العبدَ أمرُ الله وهو على ذلك، غير منتظر تحقق النتائج في حياته، بل يسعى ليساهم في بناءٍ عظيم بأكبر عدد ممكن من اللبِنات.

كما أنني أؤكد على أن هذه المبشرات ستكون على عكس المقصود منها إذا غالى فيها الشخص! ونسي أو تناسى ما تعيشه الأمة من واقع يستلزم جهداً عظيماً لتصحيحه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

(١) النقول السابقة عن مقال بعنوان (الغرب والقنبلة النووية الإسلامية) لباسم خفاجي، مجلة البيان عدد (١٢٨). (هذا في تاريخ كتابة هذا المقال، أما الآن - بحمد الله تعالى - فقد رأينا ورأى العالم صواريخ القسام بعيدة المدى، والطائرات بدون طيار التي استخدموها ضد الصهاينة في حربهم الأخيرة عام ١٤٣٥هـ).

ابنُ عباس ينادي طلاب العلم (١/ ٣)

٣/ ١١/ ١٤٣٤هـ

مَن منا لم يَسمع بالحَبر البحر عبدالله بن العباس، ابنِ عم رسول الله ﷺ، الهاشمي، القرشي، المولود قبل الهجرة بثلاث سنين، المتوفى سنة ثمان وستين (٦٨هـ)؟

لقد كان ابنُ عباسٍ مدرسةً في العلمِ والعملِ، وسيرته في بدايات طلب العلم ونهاياته تنادي بلسان حالها ومقالها طلابَ العلم ليستفيدوا منها في حياتهم العلمية.

ومن الحسن أن تبرز هذه القدوة العلمية للنشء، والتي أثْرَتْ الأُمةَ وأثّرت فيها، منذ بدأ في بثّ العلم إلى يومنا هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها.

لم تكن صحبةُ ابن عباس للنبي ﷺ طويلة، بل كانت قريباً من ثلاثين شهراً، أي نحواً من سنتين ونصف، وكان عمره حين مات ﷺ قرابة ثلاث عشرة سنة -كما هو المشهور عند كثير من أهل العلم- لكن الحياة لا تقاس بطول السنوات، بل بقدر العطاء والبذل، وحُسْنِ الأثر.

إن المتأمل في سيرة ابن عباس العلمية؛ سيجد أنها تميزت بمزايا كوّنت منه شخصيةً علميةً فذّة، ومن ذلك:

أولاً: حرصُه على الطلب مبكراً، وقربُه من العلماء، وعلى رأسهم نبيه ومعلِّمه الأول ﷺ، فقد حدّث ابنُ عباس قائلاً: إن النبي ﷺ دخل الخلاء، فوضعتُ له وضوءاً، فقال: «**من وضع هذا؟**» فأُخبر، فقال: «**اللهم فقِّهه في الدين**»[1].

هذا الحرص على القرب من النبي ﷺ، وتلقي العلم من مصدره؛ لفتَ نظر مَن حوله، خاصةً والديه، فقررا بعثه -وهو الغلام الصغير- لينهل من علمه ﷺ في أمورٍ قد لا يطّلع عليها إلا خاصة أهله.

فلما كانت ليلةَ خالتِه ميمونة -أم المؤمنين ﵂ أرسله والداه ليبيت هناك، وليقتبس من العلم النبوي مباشرة وبلا واسطة.

ولن تجد أحسن من أن تستمع لابن عباس نفسه وهو يحدثك عن تلك الليلة التي لا ينساها في حياته، حيث يقول: «بِتّ ليلةً عند خالتي ميمونة، فقام النبي ﷺ من الليل، فأتى حاجتَه، ثم غسل

---

(١) البخاري ح(١٤٣).

وجهَه ويديه، ثم نام، ثم قام فأتى القِربة، فأطلق شناقها[1]، ثم توضأ وضوءاً بين الوضوءين[2]، ولم يُكثِر، وقد أبلغ، ثم قام فصلى، فقمت، فتمطيت كراهية أن يَرى أني كنت أنتبه له، فتوضأت، فقام فصلى، فقمت عن يساره، فأخذ بيدي فأدارني عن يمينه، فتتامتْ صلاةُ رسول الله ﷺ من الليل ثلاث عشرة ركعة، ثم اضطجع فنام حتى نفخ، وكان إذا نام نفخ، فأتاه بلال فآذنه بالصلاة، فقام فصلى، ولم يتوضأ، وكان في دعائه: «اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي بصري نوراً، وفي سمعي نوراً، وعن يميني نوراً، وعن يساري نوراً، وفوقي نوراً، وتحتي نوراً، وأمامي نوراً، وخلفي نوراً، وعظم لي نوراً»[3].

هذا وصفٌ حدّث به ابن عباس -بعد سنوات من هذه القصة التي وعاها وحفظها-، ومن عادة الصبي في مثل هذا السن أنه تغلبه عيناه، ولا يفيق إلا إن أوقظ أو استكمل حاجته من النوم! لكنه لم يفعل، بل نقل لنا صفة قيام النبي ﷺ لليل، بهذا التفصيل الدقيق الذي يعزُّ نظيره.

---

(١) قال النووي: (الشناق: هو الخيط الذي تربط به في الوتد، قاله أبو عبيدة، وقيل: الوكاء).

(٢) أي: وضوءاً خفيفاً.

(٣) مسلم ح(٧٦٣).

إن حرص والدَي ابن عباس لم يكن كافياً لصناعة طالب علمٍ يعي ويفهم، بل قارَنَ ذلك حرصٌ من ابن عباس نفسه.

ويمتد هذا الحرص على العلم بعد وفاته ﷺ، ليأخذ منحى آخر، يوضّحه ما يلي:

ثانياً: لم تفتر همةُ ابن عباس -وهو المفجوع بوفاة معلمه الأول ﷺ- بل رأى في ذلك ما يحفز همتَه للتلقي عن أكابر أصحابه، الذين لازموه ونهلوا من معينه، وعرفوا من سنته ما لم يعرفه غيرهم.

وها هو ابنُ عباسٍ يصوّر لنا هذا الحرص من خلال هذا الموقف الذي وقع له مع شابٍ من شباب الأنصار، فيقول: «لما توفي رسولُ الله ﷺ، قلت لرجل من الأنصار: يا فلان! هلمّ فلنسأل أصحاب النبي ﷺ، فإنهم اليوم كثير! فقال: واعجباً لك يا ابن عباس! أترى الناس يحتاجون إليك، وفي الناس مِن أصحاب النبي ﷺ مَن ترى؟ فتركت ذلك، وأقبلتُ على المسألة، فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل فآتيه وهو قائل، فأتوسد ردائي على بابه، فتسفي الريحُ على وجهي التراب، فيخرج، فيراني، فيقول: يا ابن عم رسول الله! ما جاء بك؟ ألا أرسلتَ إلي فآتيك؟ فأقول: لا، أنا أحق أن آتيك. فأسأله عن الحديث». قال: «فبقي الرجل حتى رآني وقد اجتمع

الناسُ عليّ، فقال: «كان هذا الفتى أعقل مني»![1]

سترى -يا طالب العلم- في طريقك ألواناً من العقبات، منها: كسالى الطلبة، الذين يثبطون ويخذّلون من حيث لا يشعرون، وسيقولون لك: أتظن أن الناس بحاجة لعلمك وفي الناس فلانٌ وفلانٌ من العلماء؟! فدعهم -كما فعل ابن عباس- وامض لطريقك، فيوشك أن تطول بك وبه حياة، حتى يقول -بلسان حاله أو مقاله-: هذا الفتى أعقل مني! وربما جلس عندك طالباً يتعلم منك.

(١) سنن الدارمي رقم(٥٩٠).

ابنُ عباس ينادي طلاب العلم (٢/ ٣)

١٠/ ١١/ ١٤٣٤هـ

أشرتُ في الجزء الأول إلى أهمية الإفادة من شخصية ابن عباس ﷺ في تربية النشء على الجدية في طلب العلم، وذكرتُ هناك مَعْلَمين بارزين في هذه الشخصية:

الأول: حرصُه على الطلب مبكراً، وقربُه من العلماء، وعلى رأسهم معلمه الأول ﷺ.

الثاني: صبره على طلب العلم، وعلوّ همته في ذلك بعد وفاة النبي ﷺ.

وفي هذا الجزء نواصل الحديث عن هذه المعالم:

ثالثاً: يلفتُ النظر في سيرة هذا الحبر الجليل؛ اهتبالُه الفرصَ، واغتنامه لها، ليقترب من العلماء متى ما لاحت له فرصة، فإن لم تحنْ، صبر وتريّث حتى تحين الفرصة المناسبة.

وقد سبق -في الجزء الأول من هذه المقالات- الإشارة إلى قصةِ وضعِه الوضوءَ للنبي ﷺ عندما دخل الخلاء، فنال بذلك بركةَ

دعوتِه ﷺ: «اللهم فقهه في الدين»[1].

وفي الصحيحين أن ابن عباس ﷺ قال: مكثتُ سنةً أريد أن أسأل عمر بن الخطاب ﷺ عن آية، فما أستطيع أن أسأله هيبة له، حتى خرج حاجاً فخرجت معه، فلما رجعنا وكنا ببعض الطريق؛ عَدَلَ إلى الأراك لحاجة له، قال: فوقفتُ له حتى فرغ، ثم سِرتُ معه، فقلت: يا أمير المؤمنين! من اللتان تظاهرتا على النبي ﷺ من أزواجه؟ فقال: تلك حفصة وعائشة، قال: فقلت: والله إن كنتُ لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة، فما أستطيع هيبةً لك، قال: فلا تفعل! ما ظننتَ أن عندي مِن علم فاسألني، فإن كان لي علم أخبرتك به... الحديث.[2]

فتأمل كيف بقي ابنُ عباس هذه المدة الطويلة يتحين فرصةً لسؤال شيخه عمر -رضي الله عنه- عن هذه المسألة التي أشكلت عليه، فلم يفعل حتى وجد الفرصة الملائمة!

لقد وجدَ شيخُه عمر -رضي الله عنه- في هذا الموقف فرصةً لتشجيعه، وحثِّه على عدم ترك السؤال خشية هيبته، وتربيتِه على هذا الأصل العظيم: «فإن كان لي علم أخبرتك به»!

---

(١) البخاري ح(١٤٣).

(٢) البخاري ح(٤٩١٣)، مسلم ح(١٤٧٩).

إن اجتماع الأدب والحرص على العلم، مع الصبر عليه من قِبلِ الطالب، ووجود صفة الورع في العالم الذي يتلقى عنه، وتشجيعِ التلاميذ على السؤال؛ سيخرّج أجيالاً تتمثل العلم الرباني، الذي يجمع بين العلم والعمل، وهؤلاء هم شامة العلماء، وسادة الأمة.

ومن جميل ما يُذكر في سيرة هذا الحبر الجليل؛ أنه لما مات -رضي الله عنه- قال محمد بن علي بن أبي طالب -المعروف بابن الحنفية-: «اليوم مات ربانيّ هذه الأمة»![1]

فمتى وجدتَ -يا طالبَ العلم- شيخاً كهذا فالزمه، وتعلّم مِن سمْتِه وديانته كما تنهل من علمه، وإياك والملل، والاستعجال، ولا تمنعنّك هيبته، أو وجود بعض النقص في شيء من أخلاقه؛ مِن ترك الاستفادة منه! بل الطالب الموفَّق هو الذي يتأمل فيما كره من أخلاق شيخه، فيسعى لتجنبها؛ حتى لا يقع فيها إذا كبر واحتاج الناسُ إلى علمه.[2]

رابعاً: لم يكن فوات شيء كثيرٍ من حديث رسول الله ﷺ مانعاً من الحرص على جمعه، وسماعه ممن سمعه منه.

يقول عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: كان ابن عباس قد فات الناس بخصال: بعلم ما سبق، وفقهٍ فيما احتيج إليه من رأيه، وحلم، ونسب، ونائل، وما رأيت أحداً أعلم بما سبقه من حديث

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٢٨١).

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٢٨١).

رسول الله ﷺ، ولا بقضاء أبي بكر وعمر وعثمان منه، ولا أعلم بما مضى، ولا أثقب رأياً فيما احتيج إليه منه، ولقد كنا نحضر عنده، فيحدثنا العشية كلها في المغازي، والعشية كلها في النسب، والعشية كلها في الشعر.

هذه شهادة من أحد أكابر أصحاب ابن عباس، وهي تلخّص ما كان يعانيه ابن عباس من تتبع، وحرص على استدراك ما فاته، مما وقع لا بتقصير منه، بل بسبب صغر سنّه.

لقد عرفتُ -فيمن لقيت من طلاب العلم عند شيخنا العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله [ت: ١٤٢١هـ]- من جاء إلى شيخنا في آخر سنيّ حياته، لكنّه أكبّ على علم الشيخ -الذي كان حينها في الأشرطة والمذكرات أكثر منه في الكتب- وأدرك كثيراً مما فاته بسبب تأخر لحاقه بالشيخ لصغر سنّه، أو لعدم قدرته على اللحاق به إلا متأخراً.

وهكذا الطالب الذكي الموفّق؛ يغتنم زمانه، وسنوات طلبه المبكّرة، ويجتهد في استدراك ما فاته من علوم شيوخه، ويستعين بالله، فإن صبر وثبت؛ حصّل واستفاد كثيراً، وربما فاق من سبقوه سناً وطلباً للعلم.

ابنُ عباس ينادي طلاب العلم (٣/ ٣)

١٨/ ١١/ ١٤٣٤هـ

أشرت في الجزء الثاني إلى بعض معالم التميز في شخصية ابن عباس، وذكرتُ هناك معلمين بارزين في هذه الشخصية:

- اهتبالُه الفرصَ واغتنامه إياها بالقرب من العلماء متى ما لاحت له فرصة.
- حرصه على استدراك ما فاته من حديث رسول الله ﷺ، وسماعه ممن سمعه منه.

وفي هذا الجزء نختم بالإشارة إلى **مَعْلَمين من معالم التميز في** حياة هذا الحبر الجليل العلمية، وهما:

خامساً: حرصه -الذي أشرتُ إليه- على جمع حديث رسول الله ﷺ؛ لم يكن ليشغله عن الأصل الأكبر والأول، وهو القرآن الكريم: حفظاً، وفهماً، وتدبراً، وعملاً.

وقد سبق لنا -في المقالة السابقة- أنه بقي سَنةً كاملة يتحين فرصةً ليسأل أمير المؤمنين عمر -رضي الله عنه- عن آية في كتاب الله تعالى!

وها هو ابنُ عباس يحكي لنا موقفاً عاتَبَ فيه أكابرُ قريش عمرَ -رضي الله عنه- على إدخال ابن عباس معهم، وعدم إدخال أقرانه من أبنائهم! فقال لهم عمر: «إنه ممن قد علمتم» قال ابن عباس: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم -وما رأيته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني- فقال: ما تقولون في: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ١، ٢] حتى ختم السورة؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وقال بعضهم: لا ندري! أو لم يقل بعضهم شيئاً، فقال لي: يا ابن عباس! أكذاك تقول؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجَلُ رسول الله ﷺ أعلمه الله له ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فتح مكة، فذاك علامة أجلك: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣] قال عمر: «ما أعلم منها إلا ما تعلم»[1].

وقد كان عمُرُ ابن عباس يومها لا يتجاوز خمساً وعشرين سنةً! وأوتي هذا الفهم العميق، الذي كان من أسبابه: الجدّ والحرص على تفهّم معاني كلام الله تعالى وتدبره.

---

(١) البخاري ح(٤٢٩٤).

ومن آثار تعلُّقه بالقرآن مِن صغره: أنه أرّخ مناسبة عزيزةً عليه: وهي حفظ المفصّل، ويقال له: المُحكم، فقال -كما في البخاري من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﷺ: «جمعتُ المحكم في عهد رسول الله ﷺ»، فقلت له: وما المحكم؟ قال: «المفصَّل»[1].

هذا التعلق العظيم بالقرآن -فهماً وتدبراً- لم يكن بمعزلٍ عن العمل به؛ يوضّح ذلك ما رواه ابنُ أبي مليكة، قال: صحبتُ ابنَ عباس مِن مكة إلى المدينة، ومن المدينة إلى مكة، فكان إذا نزل منزلاً قام شطر الليل فأكثر في ذلك النشيج، قلت: وما النشيج؟ قال: النحيب البكاء، ويقرأ: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩].[2]

فتأمل كم أثّر هذا الموقف في ابن أبي مليكة! وكم يربي العلماءُ العاملون في نفوس تلاميذهم بأمثال هذه المواقف ما لا تصنعه بهم عشرات الكلمات والخطب!

وهذا من توفيق الله لطالب العلم؛ أن يُرزق بعالم عامل، كما رزق الله ابنَ عباس بسيد العلماء العاملين ﷺ، والخلفاء الراشدين، وكما رُزق ابن أبي مليكة بابن عباس ﷺ.

---

(١) البخاري ح(٥٠٣٦).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٢٤٤) رقم(٣٥٧٢٠).

والمقصود: أن على طالب العلم -مهما كان ميله لفنٍّ من الفنون- أن يعتني بكتاب الله عز وجلّ، تلاوةً وفهماً وتدبراً وعملاً به، وأن انهماكه في علم من علوم الشريعة فضلاً عما سواها من العلوم؛ لا يعفيه من الاهتمام بالقرآن، **فهو الكتاب الذي يتجاوز كلّ التخصصات.**

لقد وجدتُ في تراجم الأئمة الذين نفع الله بهم الأمة، وصاروا محل القبول؛ اشتراكاً في الاهتمام بالقرآن، على تفاوت درجاتهم، لكنك لن تجد من هؤلاء الأئمة من ليس له وِرد أو حزبٌ من القرآن.

إن مما يُحزِن الإنسان أن تكون علاقة طالب العلم بالقرآن -كما حدثني أحدهم- من رمضان إلى رمضان!! فما الفرق بينه وبين العامة؟ بل بعض العامة خيرٌ منه.

إن توثيق الصلة بكتاب الله حقٌّ على كل مسلم، وهو في حق من أوتي شيئاً من العلم آكد وأوجب، فهو كلام الله وكفى! فيه الشفاء والنور، وهو مصدر التشريع الأول، إلى غير ذلك من الدواعي التي تحتم على المسلم العناية به، بل إن العلم الذي يؤتاه الطالب يحض أصلاً على توثيق الصلة بالقرآن، ولا بركة للعلم إلا بالعمل.

سادساً: ذكر المزي في ترجمة ابن عباس من «تهذيب الكمال»[1] نحواً من مائتي نفسٍ من تلاميذه، والآخذين عنه.

وهذا العدد -بالنسبة لذلك الزمن- عددٌ كبير، وهو ثمرة صبرٍ ومصابرة على الجلوس للتعليم، هذا الصبر والجهاد بالبيان؛ أثمر عدداً كبيراً من التلاميذ الذين كتب الله لهم القبول والتأثير في الأمة بعد ذلك، كعطاء بن أبي رباح، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وأبي العالية الرياحي، وسعيد بن المسيّب، ومجاهد، والضحاك بن مزاحم، والشعبي، وعُبَيد الله بن عبدالله بن عتبة -أحد الفقهاء السبعة- وابن سيرين، وغيرهم كثير.

والمشاهد في واقعنا المعاصر، أن أكثر العلماء تأثيراً في الواقع من حيث عدد التلاميذ؛ هم الذين أفنوا أعمارهم في تعلم العلم وتعليمه، وهؤلاء هم وَلدُ العالِم من جهة العلم، ولعل بعضهم أبرُّ به من ولده لصلبه!

والمراد: أن عاقبة الصبر في التعلم أولاً ثم التعليم ثانياً؛ عظيمة الأثر، وكبيرة النفع في أمته.

سلك الله بي وبك سبيل العلماء الربانيين.

***

(١) تهذيب الكمال في أسماء الرجال (١٥/ ١٥٤).

رِحلةُ العُمُر

٢٥/ ١١/ ١٤٣٤هـ

في صيف عام ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، كنتُ في زيارةٍ لأرضِ الكنانة -أعزها الله بالإسلام والسنة- فلفت نظري -وأنا أزور إحدى العِزَبِ[1]- العباراتُ الكثيرة المكتوبةُ على الجدران، التي ترحِّب بالحاج فلان، والحاج فلان، وكلماتُ الدعاء المألوفة: حج مبرور، وسعي مشكور.. الخ تلك العبارات التي أراها لأول مرّة في حياتي، مع كثرة مَن لقيت من الحجاج مِن أهل بلدي، ثم أدركتُ من هذا المشهد ماذا تعني رحلةُ الحج لأغلب مَن يقطنون خارج بلادي! إنها رحلةُ العمر.

فلما زرتُ أندونيسيا عام ١٤٣٤هـ ٢٠١٣م عادت بي الذاكرةُ إلى ذلك المشهدِ الذي رأيتُه في أرض الكنانة، لكنها تمثَّلتْ صورةً أخرى، حينما وجدتُ مِن كلماتِ المسلمين وفلتات ألسنتِهم، ما يُشعرك بالشوقِ العظيمِ لأداء فريضةِ الحج، وماذا يعني أن ترفع يديك لتدعو لمسلم هناك -وهو يَسمَعك- أو يوصيك بالدعاء بأن ييسر الله له الحج إلى بيته الحرام.

---

(١) يطلق على تجمع لبعض البيوت -يجمعهم رابطٌ من نسب أو نحوه- في ناحية فيها بُعد عن التجمع الكبير للقرية، وبُعدُها قليلاً هو مَأخذ تسميتها لغوياً بالعِزَب.

إن رحلةً بهذه المنزلة؛ لخليق بالمؤمن أن يُوْلِيَها أهميةً مِن جهاتٍ عديدة:

أولها: الحرص على جمْع ما يمكن جمعُه من المال -ولو على مَدارِ سنوات- ليتَمكَّن المسلمُ مِن أداءِ رحلةِ العُمُر؛ فريضة الحج.

قرأتُ قبلَ سنواتٍ خبرَ حاجٍ هنديٍّ، وصلَ للحج بعد رحلةِ جمعٍ للمال استمرتْ قرابةَ ثلاثين عاماً! وبعضُ الناسِ هنا يماطلُ في الحج، ويتعذَّر بغلاءِ أسعارِ الحملات، وهو يُنفقُ أضعافَ قيمتِها في أمورٍ كَماليَّة!

إن الإنسانَ لا يدري متى يَفجؤُه الأجلُ، ولئِن طالَ عمرُه فإنه لا يَدري ما العَوارض التي تَعرِضُ له، فتحُوْل بينه وبين الحج؛ مِن مرضٍ، أو عجزٍ، أو غيرِ ذلك.

وإن مِن تعظيمِ شعائرِ الله: المبادرةُ لأداءِ الفريضةِ ما دامَ الإنسانُ قادراً بماله وبدَنه، قال النبي ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ! قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ، فَحُجُّوا**»[1].

ثانياً: على مَن وفَّقهُ اللهُ لهذه الرحلةِ أن يَحرص على التفقُّه في

---

(١) مسلم ح(١٣٣٧).

أحكامها؛ ليؤدِّيها على بصيرة، فإن التَّفقُّه فيها يُحقِّقُ غاياتٍ وفوائدَ كثيرة، منها:

١) تحقيق قوله ﷺ: «خذوا عني مناسككم»[1] مع قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، مع ما في اقتفاء السنة مِن عِظَم الأجر وزيادة الخير.

٢) السلامةُ من تَبِعاتِ الجهلِ بالحكم الشرعي الذي يَقترن به غالباً إرهاقٌ للنفس، وإتعابٌ للبدن في شيءٍ تظنُّه من الشرع وليس كذلك، فضلاً عن بعض التبعات المتمثلة في الدم، أو الإعادة، ونحوها.

تأمل في قصةَ عروة بن مضرس الطائي ﷺ حين قال: أتيتُ رسولَ الله ﷺ بالموقف -يعني بجمع[2]- قلت: جئتُ يا رسول الله من جبل طيئ[3]، أَكلَلْتُ مطيتي، وأتعبتُ نفسي، والله ما تركتُ مِن حَبْلٍ[4] إلا وقفتُ عليه! فهل لي مِن حج؟ فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَدْرَكَ مَعَنَا هَذِهِ الصَّلَاةَ، وَأَتَى عَرَفَاتَ قَبْلَ ذَلِكَ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا؛ فَقَدْ تَمَّ حَجُّهُ، وَقَضَى تَفَثَهُ»[5].

---

(١) أخرجه مسلم بلفظ: (لتأخذوا مناسككم) ح(١٢٩٧)، والنسائي: (٣٠٦٢)، وهذا هو لفظ البيهقي في الكبرى: ح(٩٥٢٤).

(٢) أي: مزدلفة.

(٣) عند مدينة حايل المعروفة شمال نجد.

(٤) الحبل: المراد به هنا: الجبل الصغير.

(٥) أبو داود ح(١٩٥٠)، وغيره ، وهو حديث صحيح.

فهذا الصحابي الكريم، لحِق بالنبي ﷺ متأخراً، ولم يدركه في أول المناسك، فاجتهد فيما ذَكَر، مع أن ما فعله ليس مطلوباً من الحاج، لكن لِخَفاء الحكم عليه فعَلَ ما فعل؛ ظناً منه أنه هو المطلوب، فأرشده النبي ﷺ إلى الجواب الذي يُبيِّن الحكمَ له ولغيره.

ولقد تيسر الوصولُ إلى معرفةِ صفةِ المناسك في عصرنا ما لم يتيسر من قبل، وذلك بقراءة كتابٍ من كتب المناسك لعالم موثوق، أو سماعه، أو مشاهدته عبر التلفاز، أو بواسطة اليوتيوب، أو بصحبة طالب علم أو عالم بأحكام المناسك.

ثالثاً: إذا وطئتْ قدمُك أرضَ المشاعر؛ فليكن همّك الأكبر: كيف أظفرْ بتلك الكرامة التي بشّر بها النبيُّ ﷺ بقوله: «مَنْ حَجَّ للهِ فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ؛ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[1].

وهذا يتطلب بُعداً عن كل ما يخدش هذه الشعيرة؛ من كلام محرَّم، أو لغطٍ، أو نظرٍ محرم، أو سماعٍ محرّم، ونحو ذلك.

ولا ريب أن الحاج حين أداء مناسِكِه معرَّض للابتلاء بالقول والنظر، فعليه أن يَضبِط مشاعرَه، ويَغُض بصَرَه، ويتقي الله في ذلك

---

(١) البخاري ح(١٥٢١) واللفظ له، مسلم ح(١٣٥٠).

ما استطاع، وما هي إلا أيامٌ، ثم يحمَدِ العاقبة على صبرِه عن محارمِ الله، وزمِّ نفسِه عن مقابلة الجدال والاستفزاز بمثله.

ومما يوصي به المجرِّبون: أن يدرِّب الإنسانُ نفسَه قبل رحلة الحج بمدة على ما سبقت الإشارة إليه؛ ليَسهُل عليه ذلك إذا وصل إلى تلك البطاح؛ وليكون ذلك ديدَنُه أبدًا فيما بعدُ في بقيةِ رحلةِ حياته التي يَسيرُ فيها إلى الله والدارِ الآخرة.

رابعاً: إذا وُفِّقتَ لعملٍ صالحٍ في المشاعر، سواء من أعمال القلوب، أو الجوارح، أو بذل المال؛ فاحرص على كَتْمِه، وجَعْلِه بينَك وبين الله؛ فهذا أحرى بالقبول، وأقرب لنفعها العاجل والآجل، وماذا ينفعك أن يَعلم الناسُ بذلك؟ بل قد يضرُّك، حين يسري إليك داءُ العُجْب، أو الرياء، وهذا يُحتِّم على الحاجِ كثرةَ سؤالِ الله الإخلاصَ، وإصابةَ السنة.

وفّق الله الحجيج، وأَرجَعَهم لبلادهم بأوفرِ أجرٍ، وأكبر غنيمة: «كما ولدته أمّه».

❊❊❊

بين العَشْر والعَشر

٢/ ١٢/ ١٤٣٤هـ

مضى على انسلاخ العشرِ الأواخر من رمضان شهرانِ بالتمام والكمال، ودخلت عشرُ ذي الحجة التي ورد في فضلها جملةٌ من الأحاديث والآثار، ومن أشهرها حديثٌ عن ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه قال: «ما العمل في أيام أفضل منها في هذه» قالوا: ولا الجهاد؟ قال: «ولا الجهاد، إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله، فلم يرجع بشيء»[1].

وتبرُز -كالعادة- مسألةٌ شهيرة، وهي: **هل عشرُ ذي الحجة أفضل مِن عشر رمضان، أم العكس؟**

وليس المراد هنا بحث هذه المسألة -فقد توسَّع فيها جماعةٌ من أهل العلم رحمهم الله[2]- إلا أن المشاهَد أن عشر ذي الحجة لا تَشهدُ تلك الحفاوةَ التي تشهدها العشرُ الأواخرُ من رمضان، فما السبب يا ترى؟

---

(١) البخاري ح(٩٦٩).

(٢) ومن أوسع من وقفت عليه: ابن رجب في كتابه الماتع (لطائف المعارف) (ص: ٤٦٧) في الفصل الثاني من مجالس عشر ذي الحجة.

لعل مِن أكبر الأسباب:

- كون تلك العشر تأتي في نهاية موسم رمضان بخلاف هذه.

- ولكون تلك العشر فيها الليلة التي فضِّلت على ألف شهر.

ولكن كيف يكون لهذه العشر العظيمة -التي ظاهر النصوص يدل على تفضيلها مطلقاً على العشر الأواخر من رمضان- أثرُها الواقعي في حياتنا؟

أذكر ههنا بعض الأمور التي تُعين على ذلك:

١) تذكير الأهل بفضلِ هذه العشر؛ إما من خلال الجلسة العائلية، أو سماع مقطع صوتي، أو توزيع مطوية صغيرة، ويمكن إقامة مسابقة عليها.

٢) أن يكون الوالدان قدوةً عملية في هذا الأمر، فإن القدوة الماثلةَ أمامَ الأولاد تؤثِّر ولو بعد حين؛ من خلال ما يرونه من تغيّر في برنامج البيت اليومي، بدءاً من صلاة الفجر، وانتهاء بالوتر.

٣) التخفف من المشغلات والملهيات ولو كانت مباحة، فكيف بالمحرمة! فإن الملاحظ أن للأجهزة الالكترونية أثرُها الواضح في ضياعِ كثيرٍ من الوقت بدون فائدة، بل ظهر أثرُها السلبي في تشتت الأسرة وتفرّقها وإن كانوا داخل البيت الواحد.

٤) وضع محفزات داخل البيت للمتميز من الأولاد في هذه العشر المباركة، وتكريمه يوم العيد.

٥) البعد عن المعاصي في كل وقتٍ متعين، وهو في هذه المواسم أكثر تأكداً. قال بعض السلف: «احذروا المعاصي فإنها تَحْرِم المغفرةَ في مواسم الرحمة»، خاصة معاصي النظر التي أفسدت القلوب، وكدَّرت صفاءَ النفوس، وأفقدت لذةَ التعبد.

٦) كثرة الدعاء والتضرع لله، وطلب الإعانة منه سبحانه على ذِكره وشُكره وحسن عبادته، فإن العبد لا يستطيع أن يحرّك شفتيه بذِكره، ولا تخطو قدماه إلى طاعة، ولا تُنفق يمينه بصدقة؛ إلا بعون الله وتوفيقه، «والخذلان أن يخلي اللهُ تعالى بين العبد وبين نفسه ويَكِلَه إليها، والتوفيق ضدُّه؛ أن لا يدَعَه ونفسَه ولا يَكِله إليها، بل يصنع له ويلطف به، ويعينه ويدفع عنه، ويكلأه كلاءة الوالد الشفيق للولد العاجز عن نفسه، فمن خلَّى بينه وبين نفسه هلك كل الهلاك، فالعبد مطروح بين الله وبين عدوه إبليس! فإن تولاه الله لم يظفر به عدوُّه، وإن خذله وأعرض عنه افترسه الشيطان كما يفترس الذئبُ الشاةَ»[1].

---

(١) (شفاء العليل) لابن القيم، باختصار (ص: ١٠٠).

وختاماً.. «الغنيمةَ الغنيمةَ بانتهاز الفرصة في هذه الأيام العظيمة، فما منها عِوَض ولا لها قيمة، المبادرةَ المبادرةَ بالعمل، والعجلَ العجلَ قبل هجوم الأجل، قبل أن يندم المفرِّط على ما فعل، قبل أن يَسأل الرجعةَ ليعمل صالحاً فلا يُجاب إلى ما سَأل، قبل أن يَحُوْل الموت بين المؤمِّل وبلوغ الأمل، قبل أن يصير المرءُ مرتهناً في حفرته بما قدَّم مِن عمل»[1].

❊❊❊

(١) (لطائف المعارف) لابن رجب (ص: ٢٧٤).

دمعةٌ في مسجدِ نَمِرة

٨/ ١٢/ ١٤٣٤هـ

كنتُ جالساً معه في مسجد نمِرة، هناك حيث يقفُ الحجاجُّ على صعيدِ عرفات الطاهر، إنسانٌ تَعرف مِن ملامحه أنه ذو مكانةٍ علمية مرموقة، متفوِّق في عَمَله، ناجح في حياته، كلُّ أسبابِ السعادةِ متوفرةٌ لديه: مالٌ، شهادات، وهو -أيضاً- شخصيةٌ محبوبة.. فجأة! -ونحن في المسجد- رأينا شخصاً يَدعو، يُلِحُّ في الدعاء، يبتهل، كان قائماً فأجهش في البكاء، فقعد ثم انخرط في بكاءٍ طويل تُقطِّعه الدعوات!

نظَرَ إليّ صاحبي ودمْعُه يتحدّر من عينيه وقال: خذ أموالي، خذ شهاداتي،..وأعطني لحظة روحانية كهذه، ثم سَكَتَ وسَكتّ.[1]

إنه لَمشهدٌ عظيم، يوم ترى العبدَ يعيش حالةَ الذلِّ والافتقار للواحدِ القهار!

إنه لمشهد طالما فقدَه الكثيرون، وتمنَّاه الكثيرون، كيف لا وهو غايةُ العز، وغاية الفخر والشرف!

---

(١) هذا الموقف ذكره كاتب مقال (خواطر حاج) نشر في مجلة البيان بعنوان: العدد (١٣٦)، ص: ١٠٧.

إنه لمشهد لا يحصل بالأموال.. ولا بالشهادات.. ولا تجلبه المناصب.

إنها لحظات يتمنى مَن في قلوبهم بقيةُ حياةٍ -ممن فقدوا هذه اللحظات- أن يعيشوها كما تمناها صاحبنا هذا!

وأجزم أن هذه اللحظات يتمناها كل مؤمن.. ولكن السؤال: لماذا لا يجدها الكثيرون؟ ولماذا فقدوها؟ لماذا أصبحت العبادات -عند كثيرين- مَظهراً بلا مخبَر! وصورةً بلا حقيقة! وجسداً بلا روح؟

هذا ما سنحاول الإجابة عنه -باختصار- في هذه المقالة، مِن خلال تسليط الضوءِ على أبرز الأسباب التي حالت بيننا وبين الحصول على لذةِ التعبد، وهي:

١) الذنوب والمعاصي: فكم أذهبتْ هذه الذنوبُ لذةَ المناجاة! وكم أفقدتْ بهاءَ الضراعة!

يقول ابن القيم -وهو يتحدث عن أضرار الذنوب والمعاصي-: «ومنها: وِحشةٌ يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله، لا يوازنها ولا يقارنها لذةٌ أصلاً، ولو اجتمعتْ له لذاتُ الدنيا بأسرها لم تَفِ بتلك الوحشة، وهذا أمرٌ لا يُحِس به إلا مَنْ في قلبه حياة! وما لجرحٍ بميت إيلامُ! فلو لم يترك الذنوبَ إلا حذراً من وقوع تلك الوحشة

لكان العاقل حرياً بتركها، فليس على القلب أمرَّ من وحشة الذنب على الذنب»[1].

٢) **ضعف العلم بمنزلة العبادة التي نعملها:** فإن تعظيمَ الشيء فرعٌ عن تصوُّر حقيقته، فكيف يُرجى مِن شخصٍ أن يُعظِّم أمرَ العبادة التي يمارسها وهو لا يعرف منزلتَها؟ وكيف يُتصوَّر مِن شخصٍ أن يُعظِّم قدْرَ الصلاةِ وهو لا يعرف منزلتها في الدين؟ أم كيف يُنتَظَر مِن شخصٍ أن يتنعم بالقرآن ويهتدي به؛ ومجرد التعظيم الذي عنده قريبٌ من التعظيم النظري! فلا هو بالذي يتلوه ولو مجرد تلاوةٍ أصلاً، فضلاً عن أن يعالج به أمراضَ قلبه! وأدواءَ نفسه!

فرقٌ كبيرٌ بين مَن يؤدّي الصلاةَ لعِلمِه باضطراره إلى هذا السبب الذي يَصِله بربه، يفتح له أبواباً مِن المناجاة والانطراح بين يدي الرب جل جلاله -فرق بين هذا- وبين من يؤديها خوفاً مِن إثم تركها، وفي كلٍّ خير، ولكن بين الاثنين في هذا الأمر كما بين المشرق والمغرب.

٣) **قلة العلم بالاضطرار إلى عبادة الله:** والإقبال عليه، وتعظيمه، والخضوع له، والتذلل بين يديه، والاستكانة له، وهو ما يُعبِّر عنه العلماءُ بـ(عبودية الافتقار)، والتي نصّت عليها الآية

---

(١) الجواب الكافي (٥٧-٥٨).

الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

تلك المنزلةُ الجليلةُ مِن منازل العبودية، والتي هي سرُّ حياة القلب، وأساسُ إقباله على ربه تعالى؛ فالافتقار حَادٍ يحدو العبدَ إلى ملازمةِ التقوى ومداومةِ الطاعة، **ويتحقق ذلك بأمرين متلازمين؛ هما:**

- التأمل في عظمةِ الخالق.

- والتفكر في ضعف المخلوق وعجزه.

أما التأمل في عظمةِ الخالق وقدرته، فكلما كان العبد أعلمَ بالله تعالى وصفاته وأسمائه كان أعظمَ افتقاراً إليه وتذللاً بين يديه، قال الفضيل بن عياض: «رهبةُ العبدِ مِن الله على قدْر عِلمِه بالله»[1].

وأما إدراكُ ضعفِ المخلوق وعجزِه: فمَن عرف قدرَ نفسه، وأنَّه مهما بلغ في الجاه والسلطان والمال فهو عاجزٌ ضعيفٌ لا يملك لنفسه صرفاً ولا عدلاً؛ تصاغرت نفسُه، وذهب كبرياؤه، وذلَّت جوارحُه، وعظُم افتقارُه لمولاه، والتجاؤه إليه، وتضرُّعه بين يديه.

إن للافتقار إلى الله علامات، إن وُفِّق لها العبدُ فليحمَدِ الله

---

(١) الزهد لابن أبي الدنيا (ص: ١٤٦).

عليها، وإن وَجَد بعضَها فليبحث عن الباقي، قبل أن يأتي وقتٌ على قلبه لا يبالي -حينئذٍ- بما فَقَد منها، ولا بالسؤال عنها:

العلامة الأولى: أن تعبد ربَّك بحبٍ عظيم، وذلٍّ تام: مستسلماً لأمره، منقاداً لشرعه، لا تُقدِّم على أمرِ ربك وأمرِ رسوله ﷺ أحداً لا نفسك ولا غيرها، مهتدياً بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

العلامة الثانية: مداومةُ الذكر والاستغفار والثناء عليه سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى في كل حالٍ مِن أحواله، وديمومةُ التوبة والاستغفار عن الزلل أو التقصير، تجد لذَّتك وأنس قلبك بتلاوة القرآن، وترى راحتَك وسكينتَك بمناجاة الرحمن، ومقتضى مداومة الذكر والاستغفار أن العبدَ لا يركن إلى نفسه، ولا يطمئن إلى حوْلِه وقوَّته، ولا يَثِق بماله وجاهه وصحته، بل لا يثق بغير ربه، وحسبك أن تتأمل في معاني سيد الاستغفار تجد عجباً.

العلامة الثالثة: الوَجَلُ من عدم قبول العمل: فمع إقبال العبد على الطاعات، والتقرب لربه بأنواع القربات؛ إلا أنه مشفِقٌ على نفسه أشدَّ الإشفاقِ، يخشى أن يُحرَم من القبول، ويطولُ عَجَبُك من حال عمر الفاروق ﷺ كيف يخشى النفاقَ على نفسه! وهو الذي

بشّره النبي ﷺ بالجنة مراراً؟! وسيزول العجب إذا عرفتَ أن العبد كلما ازداد عبوديةً وافتقاراً إلى ربه ازداد ازدراءً للنفس وخوفاً عليها، وتعلَّق قلبُه بربه سبحانه وتعالى.

العلامة الرابعة: خشيةُ اللهّ في السرِّ والعلن: فهذه من أعظم آياتِ الافتقار والفاقة إليه سبحانه، فمَن عرف اللهَ تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وتفكَّر في عظَمَتِه وجبروتِه، وسلطانه الذي لا يُقهَر، وعينِه التي لا تنام؛ خاف منه حق الخوف، ومَن كانت هذه هي حالُه رأيتَه متيقِّظ القلب، يرتجف خشيةً وإشفاقاً، دائمَ المناجاة لربه، يستجير به ويستغيث استغاثة المفتقر الذليل.

والله الموفق.

❊❊❊

لاعبٌ دَولي في خيمةِ الشيخ

١٥/ ١٢/ ١٤٣٤هـ

في حج هذا العام ١٤٣٤هـ وفي ضيافة أحدِ المشايخ الفضلاء؛ استأذن عليه منسقُ مواعيده ليخبره بأن اللاعِبَين فلاناً وفلاناً -من اللاعبِين الدَّوليين في كرة القدم وغيرها- قدِما لزيارته!

استقبل الشيخُ ضيوفَه بالابتسامة، وجرى بينه وبين اللاعبين حديثٌ ودّيٌّ، ومعايدة ومؤانسة، وكلمة توجيهية من الشيخ لهم، أشار فيها إلى أن ممارسة الرياضة هوايةٌ لا تَمنع من أن يحدِّد معها اللاعبُ رسالةً له في الحياة، تنقله إلى هموم أعلى، فهو مسلمٌ قبل أن يكون لاعباً.

وضرَبَ الشيخُ نماذج لرياضيين نالوا الشهرة، مع التزامهم بالخُلُق الرفيع، والمحافظة على دينهم، ثم أبدعوا في ميادينَ أخرى، نفع الله بها الأمة، كما ضرب أمثلةً بمن ضاعت زهرة أعمارهم، فعضّوا أصابع الندم.

انتهى اللقاء بوداعٍ رسم البسمة على الشفاه، وخُتِمَ بالرغبة من الجميع في مزيد من التواصل.

توقفتُ كثيراً -بعد وداع الإخوة اللاعبين- أتأملُ في عوائد مثل هذه اللقاءات بين أهل العلم والدعوة وبين مختلف فئات المجتمع، ومنهم لاعبو الرياضة!

إن الرياضة -بمختلف أنواعها[1]- فرضت نفسها واقعاً ترعاه الدول منذ عقود كثيرة، ودخلها أعدادٌ كبيرة من الشباب، وتعلقت نفوسُهم بها ممارسةً وتشجيعاً، فهل الحل أن يَهْجُرَ أهلُ الحقّ التواصل مع هذه الفئة العريضة من المجتمع؟ أم الصواب أن يتواصلوا معهم؛ لتوجيه هذه الفئات الطيبة من الرياضيين -وهم كُثُر ولله الحمد- لاستثمار ممارستهم للرياضة في إيصال المعاني الحسنة، والتحذير من السلوكيات السيئة، التي تعصف بالشباب؟

لا أنسى أطفالاً من أقاربنا -قبل سنوات- كانوا يتحدثون عن تأثير مشهدٍ تكلّم فيه بعضُ اللاعبين المشهورين عن الصلاة، وأهمية المحافظة عليها، ومشهدٍ آخر تحدّث فيه آخرون عن ضرر المخدرات، في جملةٍ من المشاركات الجيدة، التي وصلت رسالتها لقِطاعٍ عريض من الشباب لم تكن لتصل إليهم بمثل هذه السرعة

---

(١) ولا يخفى أن الأصل في الرياضة الحلُّ، بل بعض هذه الأنواع هو مما جاءت الآثار بالحث عليه -كالفروسية، والسباحة، والرماية- ولكن قد لحق كثيراً من هذه الأنواع الوانٌ من المحاذير، نقلتها عن هذا الأصل إلى الكراهة أو التحريم، حسب ما احتفّت به من أحوال.

والانتشار لو لم يشارك فيها هؤلاء المشاهير؛ نظراً لمتابعة كثير من الشباب لهم ولأخبارهم.

إن آثار التقارب بين أهل العلم والدعوة وبين أهل الرياضة سيُحقق فوائد كثيرة، وآثاراً حسنة، منها:

١) كسر الحواجز المصطنعة بين الطرفين.

٢) تصحيح ما قد يقع من أخطاء في الساحة الرياضية.

٣) ابتكار أساليب جديدة لنشر العادات الحسنة، ومحاربة العادات السيئة المنتشرة في أوساط الشباب بالذات.

٤) التأمل في كيفية الإفادة من المحافل الدولية، في الدعوة إلى الله بواسطة هؤلاء اللاعبين الفضلاء.

٥) التعاون بين الجميع فيما يَنشر الخير عموماً بين الناس.

إنني كما أحمدُ للشيخ استقبالَه وحفاوتَه باللاعبين؛ فإنني أشكر للإخوة اللاعبين تواصلهم مع أهل العلم والدعوة، وأرجو منهم أن يزيدوا من هذه اللقاءات، فهم أصحابُ رسالةٍ -بإسلامهم- قبل أن يكونوا لاعبي كرة.

***

إرادةُ ستِّيني تهزِم سيجارة

٢٣/ ١٢/ ١٤٣٤هـ

في إحدى الرمضانات الفائتة، وفي طريقه إلى المسجد عَقِب الإفطار؛ أشعل أبو محمد سيجارته التي فارقها قبيل الفجر عند سحوره..حين اقترب مِن عتبة المسجد، نازعته نفسُه الطيبة -التي شُحنت مروءةً-: أأدخل وفي فمي رائحةٌ تُؤذي المصلين الصائمين؟ أم أرجع حتى لا أُؤذيهم؟ فأذيةُ المسلم جريمةٌ، فكيف بها في بيت الله!

لحظَتَها قرَّر أبو محمد -بل حَلَفَ- ألا يُدخن غيرَ ما دَخّن، ففي رحلته التي بلغت نحواً من أربعين سنة مع هذا «الخبيث» ما يكفي لقطع العلاقة (وما بقى بالعمر كثر ما مضى) فقد دخل أبو محمد مُعترك المنايا -ما بين الستين والسبعين-، وقال لنفسه بصدق: قبّح اللهُ سيجارةً تُؤخرني أو تَحوْل بيني وبين الدخول إلى بيت الله!

هذا الحوارُ بين أبي محمد وبين نفسه لم يَدُم أكثر من دقيقة، لكنه كان حواراً انتصرت فيه الإرادةُ المتحلية بالإيمان، والتفكيرِ السليم، على هوى النفس المخادع، والشهوةِ المهينة، مع الاستعانة أولاً وأخيراً بالله تعالى.

لم يكن حُكْمُ التدخين ولا ضرَرُه خافياً على أبي محمد، لكن لم تأت اللحظةُ التي تُخْتَبر إرادتُه وإيمانُه ومروءتُه مع هذه «الخبيثة» كما أتت الآن.

هذه الفرصة، وتلك الدقيقة الحوارية التي لم تَخْل من تحدٍّ، لا تتهيأ بالضرورة لكل مُدخِّن، لكن المؤكَّد أن إجراءَ حوارٍ مع النفس من الآن، يَحْضُرُ فيه العقلُ والدينُ، والتأملُ في هذه العادة السيئة؛ كافٍ -بإذن الله- للوصول إلى ذات النتيجة التي وصل إليها أبو محمد.

ربما يَحسُن أن تُذكَر الأرقامُ المخيفةُ -وبكثافة- عن ضحايا التدخين سنوياً في العالم، وما ينتج عنه من أمراضٍ وأعراضٍ سيئة -صحياً واجتماعياً- يحسن ذلك إذا كان المخاطَب كافراً، لكن من المؤكَّد أن ما يُقلِق المسلمَ الحقّ -مع ما سبق- شيءٌ أعظم من هذا وأكبر، إنه: الخوفُ من معصية الله تعالى، الذي وهبه هذا المال، واستخلفه عليه، وكيفيةُ الحفاظ على هذا البدن الذي استودعه الله عليه، والتفكرُ في آثار هذا السلوك المشِين على العبادة وعلى النفس والأهل!

إن الإيمانَ الذي دفع أبا محمد لإصدار قرارِ تَرْك التدخين في أقل من دقيقة؛ موجودٌ مثلُه عند كثير من المسلمين، لكنها الغفلةُ، والصحبةُ الساحبة، والاستغراقُ في العادة، تلك الأمور التي

تحجب -بمجموعها- عن التأمل والنظر في عواقب هذه العادة السيئة، دينياً ودنيوياً.

ماذا لو استشعر المدخِّن: أنه بالتدخين يُكدِّر على إخوانِه المصلين؟

وماذا لو استشعر المدخِّن: أنه بتدخينه يؤذي ملائكةَ الرحمن -الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون-: «فإن الملائكةَ تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم»[1] كما قال ﷺ.

وماذا لو استشعر خطرَه على صحته ونفسه؟ وأذاه لأهله ومَن حوله؟ وأثرَه في سوء تربية أبنائه؟

ماذا لو جمع المدخِّنُ عدد السجائر التي دخنَها خلال سنة فقط؟ فلو كان معدّل ما يدخنه يومياً خمسَ سجائر؛ فهذا يعني أنه يدخن نحواً من (١٨٠٠) سيجارة سنوياً!

إنها دعوة -لإخواني المدخنين- للحوار مع النفس والعقل، عند عتبة البيت، أو العمل، أو المسجد، أو في أي مكان، راجياً ألا ينتظروا بلوغ الستين!

متّع الله بأعمارِ الجميع على طاعته، وختم لي ولهم بالحسنى.

❊❊❊

---

(١) مسلم ح(٥٦٤).

بين ورقتَي تقويم

٣٠/ ١٢/ ١٤٣٤هـ

إن نَزْعَ آخرَ ورقةٍ في التقويم، ووضعَ تقويمٍ جديد عددُ ورقاته ٣٦٠ ورقة لها دلالات كثيرة.. إنه يعني نهاية عامٍ وبداية آخر.. وصفحات من الزمن طُوِيت ولن تعود!

وهذا قدْرٌ مشترك، لا بد منه لكلٍّ من فسح الله في أجله، لكن الشأن في أثر هذا الهدم الذي نشاهده لأعمارنا، ونعيشه لأنفاسنا، فإن كلَّ يوم ندركه -وإن كان ظاهره زيادةً في العمر- إلا أنه مِن جهة أخرى نقصٌ من حياتنا، واقتراب من ساعة الصفر: الموت!

تمتلئ الأوراقُ الثبوتية بمثل هذه العبارة: في يوم...من عام...ولد (فلان) وفي يوم...مات (فلان)، وتناقل الناسُ في مجالسهم: (مات الرجل العادي).

يُقَدَّرُ لك أن تجلس مع شخصين، وُلِدا في شهر واحد، وربما في يوم واحد، وعاشا في بيئة واحدة، وظروف متشابهة، ولكنك تجد بينهما بَوناً شاسعاً في التحصيل والأثر على نفسَيهما، والتأثير على من حولهما، أحدهما يَصدُق عليه وصف (الرجل العادي)، فما السبب؟

من البدهي أن يقال: **إن اليوم الذي يعيشه كل فردٍ منا عددُ**

ساعاته واحد، فلا يوجد أحدٌ يومُه وليلتُه أكثر من أربعٍ وعشرين ساعة، لكن الفرق هو في استثمارها، والإفادة منها.

إنك حين تقرأ قوله تعالى في توبيخ الكفار: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧]؛ لتلمس فيه التقريع بعدم اغتنام الحياة، ولهذا يقول الواحد من هؤلاء -عند معاينة مقدمات الموت: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾، فهي رغبة في إعطاء فرصة زمنية جديدة للاستدراك، ولكن هيهات: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

بل إن في قوله ﷺ: «لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يسأل عن: عمره فيما أفناه... » الحديث[1] ما يدلُّ على هذا المعنى بوضوح.. فالعمر يفنى، لكن الشأن فيم فني؟

إن من المهم لمن أراد أن يغتنم ساعاتِ عمره، وأيامَ حياته، فيما يعود عليه بالنفع؛ أن يخطط لذلك تخطيطاً جيداً، وإن من أهم ما يعين على اغتنام الأوقات واستثمارها..ما يلي:

١) ضع لك هدفاً كبيراً في حياتك، يشبه أن يكون عنوان

---

(١) رواه الترمذي ح(٢٤١٧) وصححه.

الكتاب، كأنك تنظر إليه كلما جدّت عليك صوارف تصرفك عنه.

٢) ضع أهدافاً أصغر تُعِين على تحقيق الهدف الكبير، وتكون الأهداف الصغرى بمثابة الوسائل لتحقيق الهدف الكبير.

٣) من المهم تحديد مدة زمنية مناسبة لتحقيق كل هدف من هذه الأهداف، فإن العمل الذي لا يمكن قياسه -بوضع معايير معتبرة عند أهل التخصص، بحيث يُتحاكم إليها- العمل الذي هذا شأنه؛ لا يمكن تقويمه أو تقييمه.

٤) لا تبالغ في أهدافك، ولا تجعلها هزيلة أو ضعيفة، بل كن مراعياً في ذلك لهمَّتك، والإمكانات المتاحة حالياً، أو التي يمكن توفيرها مستقبلاً بإذن الله.

٥) راجع أهدافك كل فترة؛ لتنظر فيما تم وما تأخر إنجازُه، وتبحث سببَ التأخر.

٦) قبل ذلك وأثناءه وبعده: لا تغفل عن كثرة دعاء الله بالتوفيق، والتعلق به سبحانه، والتبرؤ من الحول والقوة إلا من حوله وقوته، فإن أعظم التوفيق ألا يَكِلك الله إلى نفسك طرفة عين، والخذلانُ والعجز أن تُوْكَل إلى نفسك وقدراتك.

وعليه، فاحذر من ترديد عبارات بعض الناس الذين يُفرِطون

في الحديث عن الثقة في النفس، بل اعرف قدراتك، واحذر من الثقة في نفسك.

والأمثلة التي يمكن ضربها في هذا المقام لا يمكن حصرُها، والموفَّق من استعان بالله، واستشار، ثم انطلق: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

أسأل الله تعالى أن يستعملنا في طاعته، وأن يجعلنا ممن طال عمرُه وحسن عملُه.

***

معقول تُحبون آلَ البيت؟

٧/ ١/ ١٤٣٥هـ

هذا السؤال الذي عنونتُ به مقالتي هذه ليس افتراضياً، بل هو نص ما قالته أختٌ شيعية -اهتدت للسنة لاحقاً- اتصلت بي قبل تحولها للسُّنة، وكان عندها إشكالات كثيرة حول حقيقة موقف أهل السنة من قرابة رسول الله ﷺ!

وقد بلغتْ من الشك أن طلبتْ مني يميناً مغلّظة على أننا -معشر السنة- نحب آل البيت، ونواليهم، ونتبرأ ممن آذاهم، وقَتَل سادتهم وعامتهم ظلماً وعدواناً.. فلما حلفتُ اطمأنّتْ، بل أخبرتها أن أئمة السنة -الذين صنفوا في العقائد- يضمّنون كُتبهم أبواباً وفصولاً بل ويؤلفون كتباً مستقلة في بيان حقوق آل البيت في الشريعة، فزادت دهشتُها! وقالت: والله مُذْ تفتّحت عيناني على الدنيا، وأنا أُلَقّن أن أهل السنة أعداءٌ لآل البيت، فلا تلمني حين استقر ذلك في قلبي.

انتهت المكالمة، وأنا أعرف أن هذه الأخت -وأمثالها كثير من الشيعة وبعضهم من عوامهم- قد حُجِبوا منذ زمان بعيد عن

الحقيقة الناصعة، التي لا يستريب فيها منصف، وهي: أن محبة آل البيت السائرين على نهج سيدهم وإمامهم ﷺ؛ من الشعائر التي يَتعبد أهلُ السنة لله بها، ويُربُّون صغارَهم عليها، والمقال لا يناسبه سرد شيء من كلامهم في هذا الباب، ومن أراده فهو موجود في مظانه، ولكن سأقتصر على هذا النص من كلام الإمام ابن تيمية رحمه الله [ت: ٧٢٨ هـ] في (العقيدة الواسطية) مبيناً معتقد أهل السنة فيهم حيث قال: «ويحبون أهل بيت رسول الله ﷺ، ويتولونهم، ويحفظون فيهم وصية رسول الله ﷺ؛ حيث قال يوم غدير خم: «أُذكِّركم الله في أهل بيتي، أُذكِّركم الله في أهل بيتي»، وقال أيضاً للعباس عمه؛ وقد شكا إليه أن بعض قريش يجفو بني هاشم؛ فقال: «والذي نفسي بيده؛ لا يؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرابتي» انتهى.[1]

وربما ساعد على استقرار ما ذكرتْه الأخت في مكالمتها: ما يوجد من تقصير أو جفاء أحياناً من بعض أهل السنة في الحفاوة بذكر أهل البيت وحقوقهم التي ثبتت بها النصوص.

وأختم هذه الأسطر بنداء **إلى عقلاء الشيعة وعامتهم**: أن

---

(١) وينظر كلام الحافظ الذهبي عن الأئمة الاثني عشر -رحمهم الله- في (سير أعلام النبلاء) (١٣/ ١٢٠)، فهو غاية في الإنصاف وبيان مقامهم في الإسلام والخلافة.

يقرأوا، ويطّلعوا على مصادر أهل السنة الأصلية، وليقرأوا من كتب أهل السنة، ولا يأخذوا عمن ينقل عنهم، فقد يقع بتر أو نقص أو تحريف، وألا يرهنوا عقولهم في أمور دينهم لأي أحد - مهما كان-، بل يطلبون الدليل من الكتاب والسنة.

وفي المقابل، فإنني آمل من أهل السنة عامةً وخاصة، أن يحذروا عن عبارات القذف والشتم، خاصةً عند الحوارات، فالحق عليه نور، وليس هو بحاجة لذلك، بل ولا يصلح معه، وأما ما التبس من الحق؛ فإنه يكشف بالحجة والبرهان.

وقد صرّحتْ لي الأخت التي صدّرتُ المقال بقصتها، فقالت: كلما دخلتُ في نقاش جاد مع بعض أهل السنة، أسألُ فيه عما أشكل عليّ، رماني بعضُ الناس بأنني ابنة...!! هنا يعمى البصر، وتُصمُّ الأذن عن سماع الطرف الآخر، ويشوش الذهن، فلا يَتصور شيئاً، ولو كان يملك من الأدلة أوضحها وأنصعها!

فرفقاً أهل السنة بمخالفيكم، وليكن شعاركم: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٤]، والحالات الاستثنائية تقدّر بقدرها. والله الموفق.

***

منعشات الروح

٢٨/ ١/ ١٤٣٥هـ

في مجلسٍ من المجالسِ العابقةِ بأنفاسه ﷺ؛ جاءته هديةٌ، يبدو من خلال قراءة كلام الراوي أنها غريبة وعزيزة، لقد كانت عبارة عن ثوبِ حرير!

يقول الراوي: فجعلنا نلمسه، ونتعجب منه! لِمَ؟ إنهم الصحابة الذين تدثّر أغلبُهم ألبِسةَ الفقر وشظفَ العيش.. فمِن أين لهم مثل هذه؟ لذا فهم لما أبصروا المناديل لم يُخفوا فرْط اندهاشهم، وظهرَ ذلك الاستغرابُ على تصرفاتهم بشكل عفوي، صوّرها الراوي بقوله: «فجعلنا نلمسه»! فقال النبي ﷺ: «أتعجبون من هذا؟» قلنا: نعم، قال: «والذي نفس محمد بيده إن مناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا»[1].

هكذا يربي ﷺ صحابتَه على التعلُّق بالآخرة، ويهتبل الفرص، ويغتنم المواقف للتذكير بها، والذي يورث تذكرُها والتعلقُ بها الزهدَ في الدنيا، ذلك الزهدُ الذي لا يُقْعِدُ عن عمارتها، بل يسير

---

(١) البخاري ح(٣٢٤٩) من حديث البراء، وفي مسلم ح(٢٤٦٩) من حديث أنس. ﷺ.

وفق المنهج القرآني: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾[القصص: ٧٧].

إن هذا المنهج النبوي في التعليق بالآخرة؛ يُنعِش الروحَ التي تَنصب وتَتعب وهي تتطلع إلى بهرج الدنيا ومتاعها الزائل، تطلعاً يملأ القلبَ حسرةً على فوات ما يراه مما يتنعّم به أهلُ الملك والثراء الفاحش.

ويكفي في تصور خطورةِ الانغماس في الدنيا تدبُّرُ هذه الآية العظيمة: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

وأما الأثر الملموس للانغماس فيها فلا يحتاج لاستدلال كثير؛ فيكفي من آثاره: الغفلة عن الآخرة، وتشتت القلب وقسوته، وما يتبع ذلك من رِقّةٍ في الدين، وأمراض قلبية مهلكة؛ كالشحّ والكذب، والاستهانة بالمكاسب المحرمة، والسعي للتصدر، واستعداء كل قوةٍ ممكنة ضد من يَحُوْل بينه وبين ذلك.

ولأجل ذلك كان النبي ﷺ يغتنم كلَّ فرصة مناسبة ليقرر هذه الحقيقة، ومن ذلك: أنه دخل السوق مرةً، فمرّ بجدْيٍ أَسَكَّ -أي:

صغير الأذنين أو مقطوعهما- ميّت، فتناوله فأخذ بأذنه، ثم قال: «أيُكم يحب أن هذا له بدرهم؟» فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: «أتحبون أنه لكم؟» قالوا: والله لو كان حياً كان عيباً فيه، لأنه أسكّ، فكيف وهو ميت؟! فقال: «فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم»[1].

فانظر كيف استعمل النبيُّ المربي ﷺ لأمته الحرير مرةً -وهو أنعم ما يكون- والجديَ الأسكّ مرةً أخرى -وهو شيء تنفر النفوس عنه-، كيف استخدمها وسيلةً إيضاحية؛ لغرس القيمة التربوية، وذلك ما أدركته التربية الحديثة لاحقاً من أثر هذه الوسائل في ترسيخ المعاني!

ويخرج ﷺ إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عَبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النَّصَب والجوع، قال: «اللهم إن العيش عيش الآخره، فاغفر للأنصار والمهاجره»[2].

نعم كان ﷺ يعلِّق قلوبَ أصحابه بالآخرة، ويزرع فيها الزهد في هذا المتاع الزائل، ويدفعهم دفعاً نحو حثِّ الخطى في السير إلى

---

(١) مسلم ح(٢٩٥٧).

(٢) البخاري ح(٢٨٣٤)، مسلم ح(١٨٠٤).

الله، لكن هل انتهت الحكايةُ عند مستوى الدفع نحو ذلك الطريق؟ لا، فقد كان من هديه ﷺ **الدفعُ والرفعُ**: الدفعُ نحو الطريق، والرفع لمن مال عنه -وإن كان مسرعاً- ففي زمنه ﷺ كان هناك ثلاثة نفرٍ سألوا عن عبادة النبي ﷺ؛ فكأنهم تقالّوها، فقالوا: أين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر اللهُ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر! قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطِر! وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله أني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1].

فما أجدر الآباء والمربين أن يسلكوا هذا المنهج مع مَنْ تحت أيديهم من الأبناء والنشء، خاصة في هذا العصر الذي أضحت وسائلُ الإعلام التقليدي والجديد تضخُّ من البرامج والأفلام والدعايات ما يُصادِم هذه القيمة الشرعية المتوازنة، بل صارت تُعَظِّمُ الدنيا في العين والقلب، فيبكي ويضحك لأجلها، ويحزن ويفرح لها، ويوالي ويعادي عليها، بل صار الطفل الصغير يتحدث

---

(١) البخاري ح(٤٧٧٦).

عن أمانٍ دنيوية بحتة، لم يكن يتحدث فيها ابن الأربعين قبل عقدين من الزمان!

حقاً إن حاجات الروح تتعارض في جملتها مع كثيرٍ من مترفات عصرنا المادي، الذي يدغدغ أجسادَنا بالنعيم الزائل، ويذَرُ أرواحنا ظامئةً تذروها الرياح!

***

منامات

٥/ ٢/ ١٤٣٥هـ

وصلتني عبرَ البريد الشبكي رسالةٌ مطوّلة ذُكِر فيها جملةٌ من المنامات، طلبَ صاحبُها تعليقاً مني، ولأجل أن تكتمل الصورة؛ فإني أسوق بعضَ هذه الرؤى:

- درّسني الرسولُ ﷺ عند الكعبة، ورأيتُ مرةً أخرى أني حاربتُ معه ﷺ، كُلٌّ منا على صهوة جواده، وكانت المعركه حامية الوطيس، وفي رؤيا أخرى دعا لي ﷺ بالخير.

- رأيتُ أنني أسمع نداءً يقول لي: أنت من كبار علماء هذه الأمة.

- ورأيتُ الشيخ ابن عثيمين - ومرةً الإمام أحمد بن حنبل- وكنت بجانبه وكان فاتحاً الكتاب ويدرسني.

وبعد أن ذَكر نحواً من عشر منامات أخرى، قال: «فهذه نبذة مختصرة دون ذكر التفاصيل، أرجو أن تكون بمثابة فاتحة خير لخدمة الأمة، مع العلم أنني لم أتلقَّ ولم آخذ العلم، لأسباب قاهرة، والمقصود من رسالتي الاطلاع وإعلامنا رأيكم» انتهت باختصار.

لقد حمدتُ للسائل تواصله مع من يتوسم فيهم نصحاً وتذكيراً **بالمنهج الصحيح في التعامل مع هذه المنامات**، والذي يمكن تلخيصه في الأمور التالية:

أولاً: أن الرؤى فيها مبشِّرات ومحذِّرات، يراها الإنسان أو تُرى له، وكم نفع اللهُ بها في الحذر من شرّ، أو إدخال سرور، وما قصة يوسف عليه الصلاة والسلام إلا نموذج قرآني واضح، وأما السنة فهي متواترة في هذا الأمر.

ثانياً: أن السلف الصالح رحمهم الله كانوا يَرون وتُرى لهم أمثال هذه المنامات، فيُطلقون تلك الكلمة الخالدة: «الرؤيا تَسُر المؤمن ولا تَغره».

ومن تلك المواقف التي تدل على عمق علمهم بل وخوفهم من الاستغراق في أمثال هذه المنامات: ما ذكره الذهبي في ترجمة سفيان الثوري أنه كان إذا قيل له: إنه رؤي في المنام، يقول: أنا أَعرَف بنفسي من أصحاب المنامات. يقصد: عندي من التقصير ما يمنعني من الاغترار بأمثال هذه المنامات.

وفي ترجمة الإمام أحمد بن حنبل أن المروذي، قال: أَدْخَلتُ إبراهيم الحصري -وكان رجلاً صالحاً- على الإمام أحمد، فقال: إن

أمي رأت لك مناماً، هو كذا وكذا، وذكرت الجنة، فقال: يا أخي، إنَّ سهلَ بنَ سلامة كان الناس يخبرونه بمثل هذا، وخرج إلى سفك الدماء، ثم قال: الرؤيا تَسر المؤمن ولا تغره.»[1]

فتأمل كيف صرفَ الإمامُ أحمدُ هذا الشيخَ الصالح إلى خطورة التعويل على أمثال هذه المنامات، وضرب مثلاً بذلك الذي خرج، وتورّط في أعظم الأمور: الولوغ في دماء المسلمين! ثم قرَّر قاعدةً عظيمة في التعامل مع هذه المنامات، فقال: «الرؤيا تَسر المؤمنَ ولا تغره»، فاحفظها جيداً.

ثالثاً: ألا يَعْرِضَ هذه المنامات إلا على ناصح حاذق في التعبير، فإن التعبير نوعٌ من الفتوى، وهي جزء من دِين العبد، فلينظر من يسأل عن دينه؟!

رابعاً: من المتفق عليه بين أهل العلم أن المنامات لا مدخل لها في التشريع، فلا يجوز أن يبني إنسانٌ حكماً شرعياً، أو يتعبد لله بعملٍ ما بناءً على رؤيا.

وهذا -لمن تأمل- من عظمة هذه الشريعة، حيث جعلتْ مصادر التلقي منحصرة في الوحيين، وإلا لادّعى أناسٌ تشريعات يومية، ولتشتت الأمة! إذْ كلٌّ يدعي تشريعاً هو أولى باتباعه.

---

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية (٣/ ٤٥٣). وفي التمهيد لابن عبدالبر(١/ ٧١) القائل الإمام مالك. وفي إحياء علوم الدين (٤/ ٥٠٨) القائل محمد بن واسع.

ومن القصص الطريفة في هذا: أن قاضياً أتاه رجل وأخبره أنه رأى النبيَّ ﷺ قال له: إن الليلة من رمضان، فقال القاضي: «إن الذي تزعم أنك رأيته في المنام رآه الناس في اليقظة، وقال لهم: «صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته»[1]!

خامساً: من الخطورة بمكان أن يكون لهذه المنامات أثرها السيئ على ظنٍّ في التعبير وقع في نفس الرائي، كما لو رأى في المنام أن فلاناً أصابه بعين، أو أنه يريد به ضرراً، ونحو ذلك من المنامات، فإن للتعبير أصولاً وطرائق لا تجري على ظواهر المنامات في كثير من الأحيان، والأصل: الحكم على ما هو كائن في أرض الواقع لا المنامات.

والإنسان مع استبشاره بأمثال هذه الرؤى التي ظاهرها الخير؛ فإنه لا يعوِّل عليها، بل يوقن أن العمدة -بعد رحمة الله- على موافقة العمل للسنة ظاهراً وباطناً.

إن الرؤيا حقٌّ، والمناماتُ تحمل كثيراً من الصدق، ولكننا نفقد التوازن الشرعي والعقلي حينما يستغرق تفكيرنا ما يحصل في المنامات أكثرَ من استغراقه في اليقظة!

❊❊❊

---

(١) البخاري ح(١٩٠٩)، مسلم ح(١٠٨١).

لن تُبعدني معصيتي

١٢/ ٢/ ١٤٣٥هـ

أنا أتوب ثم أعود!.. أنا منافق! .. عجزت عن مقاومة المعصية! .. أخشى أن أنسلخ من ديني بسبب ذنوب الخلوات! ما الحل؟

كم تحمل صناديقُ رسائل الوارد -في البريد الشبكي أو في الجوال- أمثالَ هذه الكلمات من فتية وفتيات آمنوا بربهم، لكن تغلبهم نفوسُهم فيقعون قَيد المعصية، فيُحيل الشيطانُ أجواءَهم سوداءَ قاتمة، تفوح فيها رائحةُ الذنب، ولا تَهِبُّ فيها نسائمُ مغفرةِ الله الواسعة.

ولا ريب أن استعظامَ الذنب علامةُ إيمان، والاستخفاف به علامة ضعف.

والخطيرُ في هذا الباب هو أن الشيطان يدخل على قلوب كثيرٍ من هؤلاء الشبيبة من باب تعظيم الذنب، لا ليعينهم على التوبة - فهذا ما لا يريده الشيطان- بل ليعزز في قلوبهم الانقطاع عن مجالسِ الذكر، والصحبةِ الصالحة؛ بحجة أنهم منافقون! وأن مظهرهم غيرُ مخبرِهم! وهي في الحقيقة حيلة شيطانية يريد منها

إبليسُ أن تكون جسراً لمفارقة أصدقائه الصالحين، وسبباً لتبرير المعصية، التي لن تتوقف عند الصغائر، بل ستجره إلى ما هو أعظم منها.

والمتأمل في هذه الذنوب -التي يضخّمها الشيطانُ في نفوس هؤلاء الفتية والفتيات- يجد أن غالبها من الصغائر، وحين يقال هذا؛ فليس تهويناً من ارتكابها قطعاً! بل لتُوضَع الأمورُ في موضعها الصحيح، **فإن الخلل في تقدير مراتب الذنوب، ومعرفة منزلتها في الشريعة؛ يؤدي إلى نتائج وخيمة**، وكم جرّ تضخيمُ بعض الذنوب فوق حجمها الذي جاءت به الشريعة إلى عواقب سيئة الأثر على هؤلاء النشء!

والذي ينبغي أن نحذره -معشرَ الدعاة والمربين- أن نضع المعصيةَ فوقَ قدْرها الشرعي، فننقلها بطريقة حديثنا -من حيث نشعر أو لا نشعر- من الصغائر إلى الكبائر، تماماً كحذرنا من التقليل من كبيرة من الكبائر، وكأنها من أخفّ الذنوب، فإن كلا الأمرين داخلٌ في القول على الله بغير علم، الذي هو من أكبر الكبائر.

ولعل بعضَ الفضلاء يحتج بأن تعظيمَ أمرِ الصغائر يغلِقُ باب الكبائر؛ فالصغيرة تؤدي إلى الكبيرة غالباً! والواقع أن هذا -مع

كونه ليس منهجاً شرعياً- فله أثرٌ سلبي في تئييس العبد من التوبة، وقطعِ خط الرجعة، وإغلاق باب الأوْبة، ومفارقة الصحبة الصالحة -وهو كثير لا يكاد ينفك عنه كثير من هؤلاء الشباب.

كما أن تعظيم الصغائر يقود -بعد الوقوع فيها- إلى الولوغ في الكبائر دون ألم داخلي، أو تأنيب ضمير!

والذي ينبغي أن نُربي عليه أنفسَنا ومَن تحت أيدينا، يمكن تلخيصه في أمور، هي:

١) تعظيمُ الله وتوقيره، والحذرُ من المعاصي صغيرها قبل كبيرها، وأن تكون الهيبة من المعصية عملاً لا يفارق القلوب، كما قال بلال بن سعد: «لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر مَنْ عصيتَ»[1]، فالحياء من اطلاعِ الله عليه حالَ المعصية من أعظم العواصم عن المعصية.

وهذا الحياء ناتج «عن المعرفة بعظمة الله وجلاله وقدرته، لأنه إذا ثبت تعظيمُ الله في قلب العبد أورثه الحياء من الله، والهيبة له؛ فغلب على قلبه ذكرُ اطلاعِ اللهِ العظيمِ ونظرهِ بعظمته وجلاله إلى ما في قلبه وجوارحه، وذِكْرُ المقامِ غداً بين يديه، وسؤاله إياه عن جميع

---

(١) السنن الكبرى للنسائي رقم(١١٨٥٤).

أعمال قلبه وجوارحه، وذكرُ دوامِ إحسانه إليه، وقلةِ الشكرِ منه لربه، فإذا غلب ذِكرُ هذه الأمور على قلبه؛ هاجَ منه الحياء من الله، فاستحى من الله أن يطّلع على قلبه وهو معتقد لشيء مما يكره، أو على جارحة من جوارحه، يتحرك بما يكره، فطهّر قلبَه من كل معصية، ومنع جوارحه من جميع معاصيه»[1].

ومن وُفِّق لهذه الحال؛ سهل عليه ترك المحرّم، وتكدّر من الزلل، بل وجدَ للطاعة لذةً تجعله يحزن لفواتها إذا كانت مستحبةً، فكيف إذا كانت فريضة! لكنها تحتاج إلى جهادٍ ومجاهدة، وصبرٍ ومصابرة، ومَن فعل ذلك، فإن النتيجة الحتمية: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

٢) أن نبادر إذا وقعنا في الخطأ -وكلنا ذو خطأ- للتوبة، فهذا شأن مَن وعدهم الله تعالى جنةً عرضها السماوات والأرض: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٦].

---

(١) تعظيم قدر الصلاة، للإمام محمد بن نصر المروزي (٢/ ٨٢٥).

٣) أن وقوعنا في الخطأ لا يبرّر مفارقة الصحبة الطيبة، التي لو لم يكن منها إلا أنها تزهّد في المعصية، بخلاف صحبة السوء الذين يزينونها في النفس، ويهوّنونها.

٤) الخوف من عقوبة الله تعالى، فإن المتأمل في نصوص القرآن والسنة -مع كثرة ما فيهما من نصوص الرجاء- يجدهما مليئين بذكر العقوبات على المعاصي؛ لئلا يتكل الإنسانُ، ولا ييأس، بل يعيش في توازن، يجمع بين الرجاء والخوف.

إننا نبقى بشراً نتقلب بين تلك الأنفس الثلاث: الأمّارة بالسوء، والنفس اللوامة، والنفس المطمئنة، فإذا كنا غير معصومين من الأولى، فليكن لنا نصيب كبير من الثانية، لعلنا ننتقل بعدها إلى النفس الثالثة، عسى أن نسمع هذا النداء المحبَّب للنفوس: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

❋❋❋

كنتُ في المدينة

١٨/ ٢/ ١٤٣٥هـ

كلّما زرتُ مدينةَ رسول الله ﷺ لاحت لي صورٌ من المواقف الكثيرة التي وقعت على ذلك الثرى الطاهر، سواء على مستوى شخصه الكريم ﷺ، أم على مستوى بيته وأزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين، أم مع بقية الركب الميمون من أصحابه العرانين الكرام(١)، رضوان الله عليهم أجمعين.

يجلسُ أحدنا في المسجد النبوي فتتداعى أمامَه الآياتُ المدنية التي نزلت سواءٌ ههنا في هذا المسجد الشريف، أم في تلك الحجرات التي كانت تضم أطهر النساء، اللاتي امتنّ الله عليهن بقوله: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

تلك الحُجرات بسيطة البناء .. صغيرة المساحة .. حجرات حين دخلها مَلِكٌ من ملوك العرب -وهو عدي بن حاتم- وقلّب بصرَه فيها، فلم ير فيها أكثرَ من فراش يضم زوجين وعلى وسادة صغيرة! ومشجباً تُعَلّقُ عليه الثياب.. فلم يجد بُداً حين خرج أن

---

(١) تاج العروس (٣٥/ ٣٩٠): العِرْنينُ من كلّ شيءٍ: أوّلُه.

قال: ليست هذه بيوت الملوك.. إنها بيوت الأنبياء! فأسلم.

هذه الحجرات ببساطتها وعظمتها في الوقت ذاته؛ لم تَفُتْ شاعرَ الإسلام حسانَ -وهو يرثي رسول الله ﷺ- فيقول:

بِهَا حُجُرَاتٌ كَانَ يَنْزِلُ وَسْطَهَا ** مِنْ اللهِ نُورٌ يُسْتَضَاءُ وَيُوقَدُ

ومن تلك الحجرات: حجرةُ الطاهرة المطهّرة عائشة ﵂، التي ضمّت الجسدَ الطاهر له ﷺ، ثم قبْرَي صاحبيه ﵄.

يمرُّ بها المؤمنُ وتتبادرُ لذهنه فواتحُ سورة النور، التي نزل جزءٌ منها مبرئاً صاحبةَ تلك الحجرة، بأعظم براءةٍ تسمعُ بها أُذُن.

وحينما يزور المحبُّ لهذا النبي الكريم ﷺ قبرَه الشريف، وقبرَيْ صاحبيه وَزِيْرَيْ الصِدْقِ: أبي بكر وعمر ﵄؛ فإنه يغبطهما على تلك الكرامة العظيمة التي أكرمهما اللهُ بها دون غيرهما من الصحْب الكرام؛ إذْ لا يزور أَحَدٌ قبرَه ﷺ ويسلِّم عليه إلا وسلّم عليهما ودعا لهما، وإن الذي اختار لنبيه أحسنَ الصحاب في الحياة الدنيوية؛ لم يختر له إلا أحسن الجوار في الحياة البرزخية.

وحين يوفَّق الإنسانُ لقراءة السور المدنية في المسجد الشريف، كسورةِ «المنافقون»، أو مَطلع سورة «البقرة» أو «التوبة» أو «الفتح» أو «الحشر»؛ فإنه سيجد لها وقْعاً آخر.. حيث تمرُّ أمام ناظريه تلك الفلولُ المخذولة من أئمة المنافقين في هذه الأمة: ابن أُبيّ وأصحابه! ويتساءل: أين هُم الآن؟ أين ذهبت مؤامراتهم؟ أين انتهت

مكائدُهم؟ لقد خلّد القرآنُ ذِكرهم بأسوأ الذِّكر! وآلَ أمرُهم إلى شر مصيرٍ ينتظره ميِّت! وبقي دينُ الله -رغم مكائدهم ومؤامراتهم مع أعداء الملة- عزيزاً شامخاً، وسيبقى كذلك حتى يأتي أمرُ الله.

مَن الذي يزورُ جبل أُحُدٍ ولا يتذكر عشرات الآيات التي نزلت في سورة آل عمران؟! ما بين تذكيرٍ بمنة الله على الصحابة -رضوان الله عليهم- ببعثته ﷺ، وعتابٍ على ما وقع مِن نزول الرُّماة، وحديثٍ عن منازل الشهداء عند ربهم.

ومَن الذي يزور المدينة في وقت الشتاء، وفي ليلة شهباء[1]، ولا يتذكر مَطلَع سورة الأحزاب؟ التي مايز الله فيها بين قلوب المؤمنين الذين ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، والمنافقين الكاذبين الذين قالوا: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]؟! ولم ينفعهم تحزّبهم مع أعداء الله من الوثنيين واليهود.

وإذا ذُكِر المنافقون ذُكِر إخوانهم من أهل الكتاب -واليهود تحديداً- الذين أبدى القرآن في ذِكرهم وأعاد، فبقيت آياتُ الله ناطقةً بفجورهم، ونقضِهم للعهود، وخياناتهم المتكررة، بقيت هذه الآيات تتجلى لأهل القرآن عبر القرون، لا يطمسها مؤتَمر، ولا يمحوها بيان، ولا تتيه في خريطة طريقٍ يرسمها المجرمون المتغلبون!

---

(١) الليلة الشهباء هي الليلة الباردة.

ويبقى لـ«طَيبة الطيِّبة» و«طابة»[1]، والمسجدِ النبويِّ مكانتهما العظيمة في نفس كل مسلمٍ أكرمه اللهُ باتباع هذا النبي الكريم صلوات ربي وسلامه عليه، فإذا أتى تلك البقاعَ الطاهرة، التي يتضوّع منها أرَجُ[2] الوحي الإلهي، فليُمعن النظرَ وليُطِل التوقُّفَ، وليُحرِّك الذهنَ، وليَشحذ الذاكرةَ لتُعيدَه أربعةَ عشر قرْناً للوراء؛ فيتذكر كم بذل ﷺ وأصحابُه الغالي والنفيس ليصل إلينا هذا الدين كما أراده الله.

إن زيارة المدينة أو مكّة ليست مجرد سياحةٍ عابرةٍ يُجَدّدُ فيها نشاط البدن دون نشاط القلب، والموفَّق من رُزِقَ الأمرين معاً.

***

(١) هكذا سمّاها النبي ﷺ. انظر مثلاً: صحيح البخاري ح(١٤٨١)، ح(٤٥٨٩)، وصحيح مسلم ح(١٣٨٤).

(٢) مقاييس اللغة (١/ ٩٤): الْأَرَجُ وَالْأَرِيجُ رَائِحَةُ الطِّيبِ.

ساعةٌ مع طالب جامعي

٢٦/ ٢/ ١٤٣٥هـ

جمعني لقاء بطالب في المستوى الأول من كلية الشريعة، وكان يتوقّد حيوية وحماساً لدراسته، ورأيت فيه وسمعت منه اعتدالاً في طرحه، لكنه فاجأني بأن بعض أصدقائه الذين حضروا بعض دروس العلماء وكبار طلاب العلم صاروا ينتقدون تلك الدروس، ويتحدثون عما فيها من أخطاء! فقال لي: صديقي فلانٌ الذي يكبرني بسنة -عمر صديقه عشرون سنة فقط- ينتقد العالم الفلاني، وله تحفّظ على منهج فلان في دروسه -الشيخُ المشار إليه له عشرون سنة يلقي دروساً في المساجد وأعرفه جيداً-، وقال: إن طريقة العالم الفلاني -من العلماء الكبار- ليست جيدة، ولماذا يختار المتن الفلاني؟ المفروض يختار المتن الفلاني!

هذه خلاصة السويعة التي تحدث لي فيها عما لحَظَه من صديقه.

قد يبدو شيئاً صحياً أن يكون للشاب قدرة على النقد، وبيان ما هو جيد من غيره، ولكن السؤال الأهم: هل هذا السنُّ يؤهله لذلك؟ وما مدى رصيده من التجارب الذي جعله يقتعد هذا المقعد ليصوّب هذا ويخطّئ ذاك؟! وما مدى حضور النية الصالحة في هذا النقد؟

قلتُ لهذا الشاب: لو أردتَ أن تبني بيتاً، فهل ستذهب لمهندس حديث التخرج؟ أم تستشير مهندساً ذا خبرةٍ؟ فقال: الثاني بلا شك، فقلتُ: أتظن أن هذا المهندس المتخرج حديثاً لديه من الخبرة ما يمكّنه من تقويم وتقييم المشاريع الكبار؟ فقال: لا! فقلتُ له: إذا كان هذا لا يصح في علوم الهندسة أفيصح في نقد علوم الشريعة التي تشيب فيها اللحى حتى تُتقَن وترسخ فيها القَدَم؟!

ذكّرني هذا الموقف وما حكاه الطالب بمَثَلٍ مذكور في كتب الأمثال، نصّه: (إنَّكَ بَعْدُ في العَزَازِ فَقُمْ) والعَزَاز: الأرض الصُّلْبة، وإنما تكون في الأطراف من الأرَضِينَ، وهو يُضرَب لمن لم يَتَقَصَّ الأمر، وهو يظن أنه قد تقصَّاه!

وذكرَ شُرّاحُ هذا المثل القصةَ المشهورة التي وقعت للإمام المحدث الشهير الزُّهْري (ت:١٢٥هـ) حيث يقول رحمه الله: كنتُ أختلف إلى عبيدالله بن عبدالله بن مسعود (ت:٩٤هـ)، فكنت أخْدُمه، وكان يقوم له إذا دخل، وإذا خرجَ وضع عليه ثيابه، ثم قال الزهري: فقدّرتُ أني استنطقت ما عنده -أي: حصّلتُ ما عنده من علم-، فلما خرجَ لم أقُمْ له، ولم أُظهِر له ما كنت أظهره من قبلُ! قال: فنظر إليَّ وقال: إنك بعدُ في العَزَاز فقم!! أي: ما زلت في أطراف العلم ولم تبلغ وسطه.[1]

---

(١) ينظر: مجمع الأمثال (١/ ٥٢).

كما أرجعني هذا اللقاء بهذا الطالب -وما حكاه عن صديقه- بالذاكرة ربعَ قرنٍ من الزمان، حين كنا في كلية الشريعة، وتزامَلْنا مع طلابٍ كانت عادتهم وهجّيراهم نقدَ فلان وفلان، والإزراءَ بالدراسة النظامية، وكنا نسمعُ منهم أن العالمَ الفلانيَّ في طريقة تدريسه أخطاء! والشيخَ فلانٌ كثيرُ اللحن في حديثه! في سلسلة من الملاحظات والانتقادات التي تتكرر في مجالس مختلفة، بمناسبة وبغير مناسبة.

دارت الأيام، ولا أذكر أحداً منهم ثبت على الطلب والتحصيل، بل إن بعضهم سلك مسالك غير محمودة، هدى الله الجميع للصواب.

والمقصود: أن أمثال هذه النماذج من الشخصيات التي تربّت على لغة النقد المرتفعةِ وهي بعدُ في بواكير حياتها، ولا تقف عند الصورة التي ذكرها هذا الطالب الجامعي، بل تمتد إلى نقدِ المجتمع، والأمةِ بأكملها، هذه النماذج يجب أن تفهم أن ممارسة النقد علامةٌ صحية، لكن بشروط، من أهمها:

- الصدق مع الله، وأن يكون القصدُ النصح، لا الصعود على أكتاف من ينتقدهم من المشاهير! فإن هذا مزلق خطيرٌ قد يعاقَب عليه الشخص إذا ساء قصده.

- التجربةُ التي تؤهل لممارسة النقد، وإبداء وجهات النظر.

- التواصل ما أمكن مع صاحب الشأن، بدلاً من التحدث في كل مناسبة؛ فإن هذا قد لا يخلو من حظِّ النفس، وما أعزّ الإخلاص!

وختاماً: فإنني أوصي نفسي وإخوتي وأبنائي من شُداة العلم والخير، أن يتهموا الرأي، فللشباب شرّته، وللشباب حدّته وقوّته.

ولقد رأيتني حين كنا في بواكير الشباب نسمعُ من شيخنا العثيمين وغيره من أكابر شيوخنا -رحمهم الله- آراءَ كنا ننتقدها، واجتهاداتٍ كنا نستضعفها، وننظر لها بعين الاستغراب، فلما كبرنا، وتجاوزنا سنّ الأشد، وزاد العلم قليلاً؛ عرفنا وأدركنا كم كنّا نعمى عن كثير من العواقب التي حجَبنا عن رؤيتها: ضعفُ العلم، وقلةُ التجربة.

***

فهرس الموضوعات والفوائد

المقدمة ٥

الكلمة في الشبكة العالمية ٧

يا قارئ الفاتحة .. هل فهمتَ الرسالة؟ ١٢

الشهرة بين الطَّلَب والهرَب ١٥

البعد الدعوي والتربوي للقرآن المكي والمدني (١/ ٢) ٢٠

البعد الدعوي والتربوي للقرآن المكي والمدني (٢/ ٢) ٢٤

قبل اتخاذ القرار ٢٨

ما بيننا لم يَبلُغ ديننا ٣٤

فتوى في المجلس النبوي ٣٩

الغبن في التوكل ٤٥

القولُ عند المَعْتَبَة ٥٠

آلام من نوع آخر ٥٧

مجلس مع البخاري ٦٢
دُلَّني على كتاب ٦٧
وجدتُ الكتاب ٧١
رجب الأصم ٧٦
أنا صريح ٨١
١٣٠,٠٠٠ دقيقة قادمة (١/ ٢) ٨٧
١٣٠,٠٠٠ دقيقة قادمة (٢/ ٢) ٩٢
أندونيسيا تتدبر القرآن..... ٩٦
المبادرون ١٠١
المثبِّطون ١٠٦
يا معشر القُرّاء في رمضان() ١١١
رمضان حياة ١١٦
التدبر بين تباشير العودة، وخطر الجرأة ١٢٠
أثر القرآن في يوم الفرقان..... ١٢٦

معتكفون ربانيون ١٣١
العيد بين عبوديتين ١٣٧
بشائر النصر (١/ ٣) ١٤١
بشائر النصر (٢/ ٣) ١٤٧
بشائر النصر (٣/ ٣) ١٥٢
ابنُ عباس ينادي طلاب العلم (١/ ٣) ١٥٦
ابنُ عباس ينادي طلاب العلم (٢/ ٣) ١٦١
ابنُ عباس ينادي طلاب العلم (٣/ ٣) ١٦٥
رِحلةُ العُمُر ١٧٠
بين العَشْر والعَشر ١٧٥
دمعةٌ في مسجدِ نَمِرة ١٧٩
لاعبٌ دَولي في خيمةِ الشيخ ١٨٥
إرادةُ سِتِّيني تهزِم سيجارة ١٨٨
بين ورَقتَي تقويم ١٩١
معقول تُحبون آلَ البيت؟ ١٩٥

منعشات الروح ١٩٨

منامات ٢٠٣

لن تُبعدني معصيتي..... ٢٠٧

كنتُ في المدينة ٢١٢

ساعةٌ مع طالب جامعي..... ٢١٦

فهرس الموضوعات والفوائد ٢٢١

❊❊❊